سمٌّ في الهواء

جبّور الدويهي

رواية

دار الساقي

سُمٌّ في الهَواء

صدر للمؤلف:

– **الموت بين الأهل نعاس**، مجموعة قصص قصيرة، دار المطبوعات الشرقية 1990.

– **اعتدال الخريف**، رواية، دار النهار 1995. حازت "جائزة أفضل عمل مترجم" من جامعة أركنساس في الولايات المتحدة. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية.

– **ريّا النهر**، رواية، دار النهار 1998، الطبعة الثانية، دار الساقي 2015.

– **روح الغابة**، قصة للصغار بالفرنسية، دار حاتم 2001. حازت "جائزة سان اكزوبيري" الفرنسية لأدب الشباب.

– **عين ورده**، رواية، دار النهار 2002، الطبعة الثانية، دار الساقي 2018. ترجمت إلى الفرنسية.

– **مطر حزيران**، رواية، دار النهار 2006، الطبعة الرابعة، دار الساقي 2012، اختيرت ضمن اللائحة القصيرة لـ"جائزة بوكر العربية" في عامها الأول. ترجمت إلى الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنكليزية والإسبانية والمقدونية.

– **شريد المنازل**، رواية، دار النهار 2010، الطبعة الثالثة، دار الساقي 2012، اختيرت ضمن اللائحة القصيرة لـ"جائزة بوكر العربية" 2011، حازت "جائزة حنا واكيم للرواية اللبنانية" 2011 و"جائزة الأدب العربي" في باريس ("مؤسسة لاغارديير" و"مؤسسة العالم العربي" عام 2013). ترجمت إلى الإيطالية والفرنسية.

– **حيّ الأميركان،** رواية، دار الساقي 2014، اختيرت ضمن اللائحة الطويلة لـ"جائزة بوكر العربية" 2015. حازت "جائزة سعيد عقل" 2015. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية.

– **طبع في بيروت،** رواية، دار الساقي 2016، ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية والإيطالية.

– **ملك الهند،** رواية، دار الساقي 2019، اختيرت في القائمة القصيرة لـ"الجائزة العالمية للرواية العربية" 2020. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية.

جبّور الدويهي

سُمٌّ في الهَواء

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشترِه، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

لوحة الغلاف بعنوان Unimaginable

للفنانة Tatiana Iliina

حاولنا جاهدين الاتصال بالفنانة Tatiana Iliina للحصول على حق استعمال لوحتها للغلاف لكن من دون جدوى.

Tatiana Iliina رسامة من أصل روسي تعيش في مونتريال بكندا حيث تعرض لوحاتها منذ 20 سنة. تأثرت بأعمال مونيه وكاندينسكي وإيفازوفسكي. حائزة الماجستير في الفنون من أكاديمية سانت بطرسبرغ ستيغليتز الحكومية للفنون والتصميم.

نرجو من أي شخص يعرفها إفادتنا بطريقة للتواصل معها وإبلاغها بالاتصال بنا.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠٢١

الطبعة الإلكترونية، ٢٠٢١

ISBN-978-614-03-0255-6

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣، بيروت، لبنان

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi دار الساقي Dar Al Saqi Dar Al Saqi

”جوعي الذي لا يستسيغُ ثِمار كلّ الأرضِ طُرّا
يَلقى بحكمة فَقْدِها طَعماً مُسرّا“

ستيفان مالارميه

سِفر الخروج

ترخي المرأة جسمها فوق كرسي من الخيزران بمسندين بقي طويلاً في بيتنا، ترتدي فستاناً منقّطاً من دون أكمام يكشف بياض ذراعيها. رأسها مائل وشعرها أسود متموّج. تتدلّى فوقها على الجدار صورة للجنرال ديغول يقف خطيباً وراء ميكروفون كبير ويتوجّه بالكلام إلى جماعة من العسكر. إلى يسارها صبيّ مبلّل الشعر، يجلس فوق كرسيّ عالٍ من دون ظهر، يلبس سروالاً قصيراً ربّما لم يعد مناسباً لسنّه وقدماه لا تلامسان الأرض. بينهما كلب يلتفّ على نفسه أرضاً وينام. تبدو الدنيا من بعيد معلّقة، ساكنة، كما في رسوم القدّيسين المحاطين بالحيوانات الداجنة وسط حديقة غنّاء. صور لا يُعرف مَن رسمها. كان ينادي عليها في أزقّتنا باعة سوريّون يحملون معها على ظهورهم حقائب ضخمة مليئة بالمناشف والثياب الداخلية. إذا خطا الناظر مقترباً من الصورة المربوطة بخيط من القنّب، وجد أنّ عينيّ المرأة تفضحان ذعراً غير مفهوم كأنّها اكتشفت للتّو بعد تجاوزها الخامسة والأربعين من العمر فداحة المصير البشري. يظهر جليّاً على وجه الصبيّ قلقٌ من نوع آخر وحتى قائد جيوش فرنسا الحرّة يبدو غاضباً. وحده الكلب يستمتِع بالهدنة التي تلي الغداء في الفصل الحارّ.

أمّا المراهق، فهو أنا والمرأة عمّتي والكلب، فوكس، كلب جارنا الصيّاد. رفع المصوّر كتفَي عمّتي المتهدّلَتين وأوقف رأسها ثم ناداني ممازحاً لكنّني لم أستجب، لم أبتسم. يدور المصوّر على البيوت، مثل ما يدور بائع الملبن أو مبيّض أواني النحاس. يقف في بابنا، لا يحكي، لا يرمي السلام، يُضيء "الفلاش" في وجوهنا وينتظر أن ندعوه. عاد بالصورة بعد يومين فصنعنا لها إطاراً من الخشب وعلّقناها على الجدار حيث التُقطت، فوق كنبة الخيزران، مجلس عمّتي المفضّل.

تبقى أمّي وعمتي في البيت ويخرج أبي إلى حانوت الأحذية، تفوح فيه رائحة الجلد والغراء. أرافقه في العطل المدرسيّة، ينهاني عن اللعب بسكاكين الجلد المسنونة. أتابعه كيف يأخذ مقاس الأقدام، يصمّم ويقصّ ويلصق. يقصده رجال يأتون من بعيد يعتمرون الكوفيّة والعقال يوصونه على جزم تصل إلى الركبة يتباهون بها إذا امتطوا جواداً أو لفّوا أجسادهم بعباءة شتويّة.

يوم العطلة المدرسية، تنزل أمّي للتبضّع في سوق طرابلس، فأجالس عمّتي المصابة بفالج نصفيّ عجزت بعده عن اللفظ القويم. يسيل اللعاب من فمها من دون أن تشعر. لا تحكي، وإذا حكت، تلعثمت بما تقوله باستثناء أبيات من الشعر حفظتها عن ظهر قلب في سنوات دراستها تصدح بأحدها مرّة في اليوم على الأقلّ من دون أن تُخطئ بحرف واحد فيه.

لم نكن وحدنا، عمّتي وأنا، فباب البيت مشرع صيفاً شتاءً. وإذا تجاوزتنا الأحداث وعضّني الكلب في رجلي العارية كما حدث مرّة، وصرخت بصوت حادّ، هرع الجيران لنجدتنا. رماني رجل ضخم الجثّة على كتفه ليتدلّى رأسي عند مؤخّرته فأسمعه يطلق ريحاً مع كلّ خطوة يخطوها. أتسلّى عن ألمي بمشاهدة المارّة يسيرون رأساً على عقب، حتى وصلنا إلى مستوصف المدرسة حيث

ضربتني الراهبة المعتمرة الكورنيت البيضاء إبرة كزاز خشية إصابتي بداء الكلَب. عفتُ من ذلك اليوم عِشرة الحيوانات الأليفة وصار فوكس يقترب من بابنا، يمدّ بوزه إلى الداخل ويذهب في سبيله.

نعيش في حيّ مكتظّ، لا تُغلق أبواب بيوته إلّا ساعة النوم، ولكلّ ساعة أصواتها. الليل يأتي بنعيق الضفادع وبعويل الثعالب البعيد. توقظنا منبّهات السيّارات يطلقها السائقون من دون سبب. يبدأ جارنا إلى الجهة الغربيّة لعق العرق صافياً فور نهوضه من الفراش. يبصق أرضاً داخل بيته، يتلو ''الأبانا والسلام'' بصوت عالٍ، ويدور باحثاً عن عذر لضرب زوجته التي تردّ له الشتائم بما هو أبلغ منها وتحمي رأسها بيديها. أرتدي ثيابي وأُسرع لمتابعة المشهد قبل وصول حافلة المدرسة: رغم احمرار وجنتيه غضباً، كان يتأنّى بصفعاته فلم نرَ جرحاً ولا دماً، وكنت أخاف أن يقع طربوشه الحميديّ الذي كان يهتزّ عند كلّ ضربة قبل أن يتدخّل المصلِحون لفضّ هذه الرياضة الصباحيّة. أمّي تقول إنّ زوجته تحبّه، ''خدَمَتْه'' في خَرَفِه عندما لم يعد يعرف مَن هي ويتّهمها بمحاولة سرقته. تحلق له ذقنه، تضع له طربوشه مع حَنية إلى اليمين وتُجلسه على كرسيّ أمام الباب. تبتعد عنه قليلاً كي تُصلح خطأ ما في هندامه، تريده في هيئة رجل بكلّ مهابته، كما تخيّلته ولم تحصل عليه. يرمي عليه المارّة السلام فيبتسم ولا يتعرّف إليهم.

بعد صخب الصباح، أقصد المدرسة حيث يُمنع علينا التحادث بالعربيّة تحت طائلة العقاب. نتقن الخطّين العربيّ والفرنسيّ، نحفظ القصائد عن ظهر قلب، نرسم القلب البشريّ ملوّناً مع كامل أنابيبه والبُطين والأذَين كما نخطّ غيباً مقاطعة النورماندي ومدنها الرئيسيّة. لا يتحمّل زملائي رؤيتي جالساً أقرأ في الملعب

خلال استراحة الظهر. أقرأ في المرحاض وفي قاعة الطعام بينما أتناول الغداء فينشل أحدهم كتابي، **قصّة مدينتيْن** لتشارلز ديكنز، ويرميه بالعالي فيعلق بين أغصان شجرة الحور، فيحاولون إسقاطه بالحجارة قبل أن يفرّوا من أمام الناظر الغضوب. رشّحتُ نفسي من دون منافس كي أكون "مسؤول" المكتبة، فصرت أرتاد يوميّاً القاعة التي يدخل عليها ضوء النهار من النوافذ فيلتمع خشب خزائن الكتب، ما جعلني أجمع من يومها بين الخشب الثمين والكتب حتى جاءني المدير يوماً وقال: "هذا مفتاح المكتبة؛ لن أجد أحرص منك عليها".

خفق قلبي وصرت أحمل الكتب معي إلى البيت وأقرأ منها لعمّتي التي تتنهّد عند بعض المقاطع كأنّها تذكّرتْ فصلاً عاطفيّاً من فصول شبابها الكثيرة. أجلس إلى جانبها فتطلع عليّ رائحة الدواء الذي تكوي به شعرها، رائحة تصيبني دائماً ببداية غثيان. أقرأ لها يوم السبت، يوم العطلة، قصائد كما تحبّ أو حكايات الفروسيّة، أقرأ لها بعد أن أعود من حفلة الذبح في الصباح الباكر.

يوم الماعز، ينبري اللحّام للمهمّة وحده ويوم العجل يتعاون اثنان، الرجل وابن عمّه. نسمع الحيوان المربوط على الرصيف يجأر من ساعات الفجر الأولى، يوقظنا جرس الكنيسة وخوار العجل الذي يقال أنّه يشعر بما ينتظره. أُسرع مع أحد رفاقي كي لا يفوتنا شيء، يطردنا اللحّام إلى الرصيف المقابل كي لا يَنفر الدم علينا. كان جزّ رقبة العجل سهلاً، ضربة واحدة من الوريد إلى الوريد. يهدّئه الرجلان، يملّسان على رقبته بنعومة كي ترتخي عضلاته ويغدرانه فجأة من الخلف بضربة حادّة قبل أن ينقبض. إنّ ذبحه وهو خائف يجعل لحمه قاسياً يصعب على الزبائن علكه. عيناه تبقيان مفتوحتين تنظران نحونا في الجهة المقابلة فنشعر أنّ فيهما بقيّة ملامة لأنّنا لم نحرّك ساكناً لنجدته. يسلخان جلده

بعناية، يقسمان العجل شقّتين فتفيض أحشاؤه أرضاً. لا أُحيد نظري عن وجهَي الجزّارَين الهادئين اللامباليَين، مثل وجه خيّاط أو حائك قصب منكبّ على صنعته، والدم يلطّخ ثيابهما. يقطّب أحدهما وجهه فقط إذا علقت سكّينه بين عظمتين. يطردان الكلاب، يتوجّهان إليها بعبارات نابية ويكملان جَرد اللحم. يبدأ صاحب الذبيحة بالمناداة، فيبدأ جاره وهو لحّام مثله على بعد أقلّ من عشرين متراً الردّ و"حرق" السعر. يدور الزجل تلميحاً وتصريحاً بأنّ ذبيحة هذا "بَلْديّة" ولحم الآخر مستورد، حتى احتدم السجال يوماً وانهالت الشتائم وشُهرت السكاكين العريضة الحادة. هربنا نحو البيت، وبعد قليل سمعنا جعيراً أشبه بخوار العجول، ثمّ علمنا أنّ اللحام الضخم الجثّة الذي كنّا نتفرج عليه صباح ذلك اليوم سقط بضربة سكّين من غريمه أخرجت له أمعاءه. رأيتُه ليلتها في المنام: بطنه مبقور وينادي على ذبيحته. مات قبل أن يصلوا به إلى المستشفى.

ألاحق اللحّامين بالخفاء عن أمي فأنا بقيتُ وحيداً في هذه الحياة. فشل أبواي في منحي أخاً أو أختاً. تخاف عليّ أمّي من كلّ ما أفعله، يقلقها أن أُتعِب عينيّ في شبه العتمة التي أقلّب فيها صفحات كتبي، تخشى عليّ من السباحة عارياً في النهر مع حلول الربيع كما وشى بي بعضهم، من عِشرة مَن تسمّيهم "رفاق السوء" أي جميع أولاد الحيّ والأحياء المجاورة، من البقاء وحيداً في الغرفة حيث قد تحضرني "أفكار مؤذية" أو من السير حافي القدمين. كلّ ما أرتاح لفعله يخيفها وربّما هي تخاف عندما تراني راضياً مندفعاً. حتى احتلالي الدائم للمرتبة الأولى في الامتحانات المدرسيّة على أنواعها كان يقلقها، ليس لأنّها لا تريد لي السعادة والنجاح بل لأنّ قلبها يرشدها لمنعي من استهلاك نفسي. كنت وحيدها، صحيح، لكنّني صرت أشعر مع مرور الزمن أنّ هذا ليس سبب هلعها الدائم عليّ. كان

تقديري صائباً، فوراء مخاوفها هذه التي لا تُحصى خشيةٌ من نوع آخر تكشّفت لي أسبابها مصادفة ذات يوم.

يقيم في جوارنا رجل في الثلاثينات من عمره يسكن مع شقيقته ويعمل أستاذاً للرياضيّات. يجد صعوبة في الحصول على إصغاء التلامذة الذين يصرخون ويتعاركون فيحرد ويجلس خلف طاولته صامتاً حتى يهدأ الصغار، وإن لم يفعلوا، يحمل لوازمه ويغادر الصفّ من دون رجعة. إنه الوحيد في دائرة واسعة حول بيتنا الذي يلبس يوميّاً بذلة وربطة عنق. تناديه أمّي ''ابن خالتي'' تحبّباً وإشارة إلى كونه قريبها. تدعوه إلى فنجان قهوة ساعة يمرّ من أمام بيتنا، يسير مترفّعاً كأنّه يدوس على رؤوس أصابعه فقط. لم يلبِّ الدعوة أبداً لكنّه أصرّ عليّ مرّة أن أزوره في بيته بعد أن عرف بشغفي بالقراءة ففوجئتُ بعدد المرايا المعلّقة على الجدران داخل بيته وبشقيقته التي ضحكت عالياً ما إن رأتني وكرّرت الضحك في لحظات لم يكن فيها سبب لأيّ انفعال. أعطاني كتاباً حول تاريخ ملوك صوْر الفينيقيّين وتواعدنا على التلاقي مجدّداً للكلام عن الكتاب.

كان هذا لقاءنا الوحيد إذ بعد يومين وفي ليلة رطبة، النوم فيها لزج والعرق يتسرّب من الأجساد وبينما المرأة الخمسينيّة المعروفة بندب أموات البلدة من دون مقابل تقاوم الحرّ وتؤنس الجيرة بأغاني الغرام مثل: ''يا جارحة قلبي والجرح يؤلمني''، طلعت صرخات حادّة من بيت قريب أمّي. كان الجوّ خانقاً لا يُطاق ولا بدّ أن ينفجر شيء ما. حمل أستاذ الرياضيّات عصا من السنديان ربّما كانت لوالده وانهال على مرايا البيت تحطيماً وكسّر كلّ ما هو قابل للكسر قبل أن يتجمّع عليه الجيران ويجرّدوه من عصاه ويرافقوه صباح اليوم التالي إلى مستشفى الأمراض

العصبيّة حيث قيل أنّه حافظ على أناقته لكنّه أقلع عن عادته القديمة بتأمّل وجهه في المرآة وتفحّص حاجبَيه وملقط الشعر في يده عشرات المرّات في اليوم الواحد.

خلاصة الحكاية سمعتُها مصادفة. كان والد صديقي يتناول العشاء على طاولة واطئة، زوجته تختفي في المطبخ وتعود حاملة العرق والتبّولة والمحادثة بينهما مستمرّة. كنتُ في الغرفة أساعد ابنهما في فرض اللغة الفرنسيّة التي شاع في الحيّ أنّني أتكلّمها بطلاقة وهما يتداولان بما جرى مع أستاذ الرياضيّات ولا يعرفان أنّني أصغي إليهما من خلف الجدار.

"العِلم لا تحمله كلّ الرؤوس"، قال الزوج، وراح يذكر أشخاصاً أكثروا من الدراسة فاضطرب سلوكهم، مثل الذي امتنع عن الزواج أو ذاك الذي كان يسخر من سرّ الحبل بلا دنس ومَن كان يتكلّم وحده عالياً ويشوّر بيديه...

"وما خَصّ العلم؟" قاطعته زوجته.

- هذا أمُّه من آل الصبّاغ.

تجادلا حول العلم والوراثة لكن بدا أنّ المرأة تكسب الجولة لمّا راحت تسرد سلسلة من أسماء أناس غريبي الأطوار أو حتى مختلّين عقليّاً ينتسبون جميعاً عن طريق الأب أو الأم إلى آل الصبّاغ، وختمتها بالقول: "هناك واحد منهم في دير الصليب حيث أخذوا جارنا الأستاذ".

أمّي من آل الصبّاغ.

تشرّدت معنا من بيت إلى بيت. لا أذكر سوى لمحات عابرة من بيتنا الأوّل حيث ولدتُ في ساحة الميدان: رائحة بائع السمك الذي كان يدخل علينا بسلاله المليئة بالسلطان إبراهيم أيام الجمعة، صوت رصاص متقطّع، وأبي الواقف في الباب الذي يتدفّق منه ضوء النهار إلى الداخل يقول شيئاً لم أفهمه فتشهق أمّي

خوفاً وأبكي لا أعرف السبب حتى يكاد يُغشى عليّ. إقامتنا في ذلك البيت لم تعد ''مناسبة'' أي لم نعد في أمان، فالحيّ ليس حيّنا. نقلنا أثاثنا إلى بيتنا الثاني هذا على دفعات وسكنتْ معنا عمّتي.

كذلك، لم تدم إقامتنا طويلاً في جوار أستاذ الرياضيّات المولع بالمرايا، لأنّ الدولة قرّرت فجأة إزالة الحيّ بأكمله من الوجود. زار رئيس الحكومة البلدة وكان رجلاً عمرانيّاً لم يطل مكوثه في منصبه. أصرّ على المرور في حيّنا سيراً على الأقدام مع حاشيته، فهالَه تكدُّس البيوت وسكّانها وسأل بصوت مسموع: ''كيف ينام الرجل مع زوجته هنا؟''

بعد شهرين، أصدر قراراً يقضي باستملاك سبعين عقاراً بهدف تشييد مدرسة ثانويّة في المكان. وبغية احتلال أكبر مساحة أفقيّة ممكنة، خطّط المهندس لأربعة مجمّعات كلّ منها بطابقين فقط وثماني قاعات للتدريس بينها ملاعب ومساحات خضراء. وفي التفاصيل التي جمعتها دائرة الاستملاكات في وزارة الأشغال العامّة، كان يمكن إحصاء مئة اسم تقريباً بين مالك ومستأجر أي ما يقارب أربعمئة نسمة يسكنون داخل مساحة لا تتعدّى ألفي متر مربّع. تبيّن أن التعويضات سخيّة وبدأ الناس يهدمون بيوتهم بأنفسهم كي يحصلوا فوراً على المال.

حضر رجلا شرطة أبلغانا قراراً مطبوعاً يقضي بإخلاء البيت، فحملت أمّي أوعية أزهارها و**الإنجيل**. تمسّك أبي بـ''البريل كريم'' يلمّع به شعره وبقارئ الأسطوانات وغالبيّتها بصوت محمّد عبد الوهاب. جمع عدّة الكندرجيّة ونقلها إلى البيت الجديد لأنّ وصوله إلى حانوته الواقع في الحيّ المقابل بات غير آمن. كان أبي نظيفاً وأنيقاً لا يعمل إلّا والمئزر يغطّي ثيابه، ولا يحمل من آثار مهنته سوى

شيء من السواد في أطراف السبابة والإبهام في يده اليمنى، يغسل يديه بالصابون مرّات عدّة في اليوم. نزحنا للمرّة الثانية إلى بيت ثالث أراده والدي هذه المرّة وسط أهله وربعه. لم أجد "أهلنا" أكثر حنوّاً علينا، لكن أبي كان دائماً يقول: "يصيبنا ما يصيبهم".

من جهتي، حملتُ كتبي، وصورتي مع عمّتي، ووضعتُ في جيب سترتي بوصلة أبحث بها عن الشمال مئة مرّة في اليوم أهداني إيّاها قريب بعد تقاعده من البحريّة التجاريّة. بدأتُ في الخامسة عشرة من عمري أعاني من بُثور "حَبّ الشباب"، وصارت تجتاحني من دون سبب نوبات من الزعل أصل فيها أحياناً إلى حدّ البكاء، خصوصاً أيّام الآحاد أو ساعة غروب الشمس. أفتخر بأنّ هذه الأوجاع الحميمة تحضر من دون إنذار، كأنّ بي وعاء أسى يمتلئ نقطة نقطة حتى يفيض. لستُ مثل غيري من رفاق الحيّ أو المدرسة تظهر عليهم أمارات التعاسة فقط إذا فرغت جيوبهم من النقود وحُرموا مشاهدة فيلم "حصار طروادة"، أو إذا طاردوا فتاة فصدّتهم. شؤون دنيا ليست من شيَمي فأنا حزين لأنّني حزين. ظهرَ مزاجي الصعب في بيتنا الجديد وسط روائح الجلد والغراء التي انتقلت معنا منذ بدأ والدي "شَدّ" الأحذية في البيت. أنتهز فرصة غياب أهلي في زيارة أحد الأقارب لأختبئ في غرفتي، أرفع اللحاف فوق رأسي وأشهق عالياً لا تسمعني عمّتي، أو أجلس على الشرفة وأنا أضمّ بقوّة إلى صدري مخدّة محشوّة بالقطن وأسمّر ناظريّ من دون رفّة جفن في الجبال العالية التي كانت ألوانها تميل إلى الزرقة.

نزل والدي وحده إلى الحيّ، سبقنا ليدرس موقع هذا البيت قبل أن يدفع إيجاره أغلى من غيره، فهو في رأيه محميّ من الجهة الجنوبية التي قد يأتينا منها الخطر

في حال تدهورت الأحوال. اختاره خلف منزل بطبقتين عاليتين من الحجر الصخريّ الصلب، يردّ عنّا. وبالفعل، صارت غرفة المعيشة تعجّ بالجيران، يبتسم والدي في وجوههم مرحّباً ما إن يُسمع صوت رصاص قريب. أوّل اللاجئين فتاة سمينة تصل متدحرجة مقطوعة النفَس تطرق صدرها بقبضتها وهي تستجدي مار إلياس لضرب أخصامنا بسيفه ثمّ ترشّ ماء مصلّى عليه فوق رؤوس الحاضرين. فتْحُ بابنا أمام مَن يرغب كان مساهمتنا الوحيدة في الدفاع عن أقاربنا. والدي لا يحسن استخدام السلاح وأنا أكتفي قبل النوم بخيالات يكون لي فيها الدور الأوّل وتدور حول نصب كمائن للأخصام ومباغتتهم ضمن فكّي كمّاشة من أجل إيقاع أكبر عدد من الضحايا بينهم. كان عقلي ينشط في التحضير للمَقتلة وحماستي تتلاشى ما إن نتفوّق على أخصامنا ونبدأ إرداءهم، فأستأنف التربّص بهم في الأزقّة المعتمة ومفاجأتهم من جديد عن سطوح البيوت حتى يأخذني النوم.

لم تتفاقم الأحوال دفعة واحدة. بقي السلاح مستتراً في جيوب المعاطف الواسعة ومزيّتاً جاهزاً خلف أبواب البيوت. لم يسقط قتلى لكن كان هناك سُمّ في الهواء. رغبة مُعلَنة بإراقة الدماء بينما الدائرة بدأت تضيق عليّ قبل غيري لأنّني وحيد وعطوب، فمكروه يصيبني وتموت والدتي من همّي ولن يطول المقام بأبي الذي لن تعني له الحياة شيئاً من بعدنا. يهزّ رأسه موافقاً على هذا الاحتمال، يضع السندان بين رجليه، يمسك الحذاء بيده اليسرى ويدقّ بالشاكوش باليمنى ويضع المسامير الرفيعة في فمه تمنعه من الكلام فيومئ برأسه أنّه سيغادر الدنيا، نعم، لا يعرف كيف، لكنّه سيلحق بنا إذا قُتلتُ وتبعتني أمي. أشعر أنه كان يسايرنا. تبقى عمّتي المريضة وحدها ولن يكون هناك أحد ليعتني بها. يخافون عليّ ولا أخاف

ممّا يخافون عليّ منه كأنّ بيني وبين الخطر جداراً زجاجيّاً سميكاً. أرى الخطر ولا يطالني.

بعد حين، سمعتُ أحدهم يقول إنّ طريق حافلة المدرسة بات غير آمن. تحسّبتُ للأسوأ وصرتُ أحمل كلّ يوم في حقيبتي مجلّدات أستلُّها بعيداً عن العيون من رفوف مكتبة المدرسة قبل أن أردّ المفتاح إلى المدير وننقطع نهائيّاً عن صفوفنا لننصرف إلى حربنا الأهليّة التي لم ندرك أسبابها حينذاك وتأكدنا من تفاهتها بعد سنوات على الخروج منها. منذ تفتّح ذهني على هذا النزاع كانت المعادلة بسيطة: هُم هناك ونحن هنا ولا مفرّ من النزال بيننا. ثمّ جاء صباح مشمساً بعد مطر ليليّ عاصف عندما دوّى انفجار من جهة بيتنا، قذيفة سقطت وسط الهدوء الصباحيّ خلف نافذتنا حطّمت شظاياها أواني أمّي الثمينة من كؤوس وفناجين شاي تقتنيها منذ زواجها، وزعزعت ثقة أبي بموقع بيتنا. لم يُعرف من أين أُطلقت القذيفة فتوقّف الجيران عن الاحتماء خلف جدراننا لكنّهم استمرّوا في البحث عنّي كي أدبّج لهم الرسائل إلى أقاربهم في المهجر.

"ماذا تريد منهم؟" أسأل صاحب الطلب، فيجيب: "سلام وكلام".

فكنتُ أطرّز الكتابة بجمل أدبيّة عن الهجرة وكيف أنّ حبّ الوطن "قتّال"، وأضيف إشارات إلى البطالة والعوز فيتلقّون من سيدني أو من كاراكاس رسائل جوابيّة تحوي دولارات لم يطلبوها. كذلك أُسهب في وصف التوتّر في البلدة وأتوقّع الأسوأ وهكذا صار إذ سقط أخيراً أوّل قتيل.

الشابّ من جهتنا، وكان يقود درّاجة هوائيّة لمّا أُطلق عليه النار فتابع سيره مغالباً ألمه حتى وصل إلى الجسر فهوى قتيلاً في النهر الناضب في أيّام الخريف هذه، ويُرجّح أنّه مات نتيجة سقوطه في قعر النهر لأنّ الرصاصة أصابت ذراعه

فقط. تلك كانت فاتحة الشرور، فاستنفر الجميع وخرجت أمّي تبحث عنّي فيما كنت أستدلّ على المكان الذي سجّوا فيه القتيل. كنتُ أنتظر فرصة مماثلة، أسلمَ المئات الروح في كتبي، قُتل الملك هنري الرابع بطعنة خنجر، شرب روميو السمّ ومات، قرأتُ أوصافاً متسرّعة ولم أرَ ميتاً واحداً. حتى جدّي لأبي لم يدعُني أقترب منه يوم انتقل إلى الحياة الأخرى وحضر جنازته جميع معلّمي الأحذية وصنّاعهم.

تسلّلتُ إلى حيث غسل رجلان راكب الدرّاجة الهوائيّة وربطا ذراعه وسدّا الفجوة في رأسه بخرقة من القماش. قلتُ في نفسي إذا نزعتُها أرى ما داخل جمجمته. تطوّعتُ كي أحضنه ليتمكّن الرجلان من إلباسه قميصاً أبيض مكويّاً وقد اعترضتُ بالقول إنّ الله خلقنا عراة فلماذا نعود إليه بأثواب من صُنعنا. سخر منّي الرجلان وأنا أسند رأس الميت على كتفي، ولمّا أعدتُه إلى السرير لإلباسه السروال، أصدر أنيناً فأفلتُّه من يدي بفعل المفاجأة ورسم أحدهما إشارة الصليب. لم نجد ربطة عنق سوداء، في كلّ حال لا أنا ولا الرجلان نعرف كيف نربطها. أسرعنا في الانتهاء منه قبل أن يتخشّب، مددناه على سرير وجلستُ أتأمّل وجهه الأملس الخالي من أيّ تجاعيد، ولونه الذي كان يتحوّل من الأخضر الفاتح إلى البياض. كانت أظفاره متّسخة؛ يعمل ميكانيكيّ سيّارات. أخذوا ساعته وبقي خاتمه ليُدفن معه لأنّ أصابعه انتفخت.

عدتُ إلى البيت وأنا أشمّ ثيابي، أقرّب طوق قميصي من أنفي لعلّني أعثر على رائحة الموت. لم أتمكّن من الوفاء بوعدي ألّا أعرّض نفسي للأخطار، فبقيتُ أُسرع لمعاينة القتلى ما إن تصل أخبارهم فاكتشفتُ الشحوب بألوانه المتدرّجة على وجوههم وانتبهتُ أنّه لم يكن هناك مال يُذكر في جيوبهم.

انشغلتُ عن أحزاني الحميمة بمجاورة القتلى والجرحى والموجوعين، ويعاودني الزعل إذا طال الهدوء. مضت أيّام تشرق فيها الشمس وتغيب من دون أن يُبلّغ عن إطلاق نار أو إصابات فكنتُ أنطوي من جديد على نفسي، أعود إلى كتبي وأجلس يائساً على الشرفة في اتجاه الجبال المرتسمة خلف الغمام وأردّد بصوت مسموع أبيات الشاعر:

أنا أمير الظلمات، الأرمل من لا عزاء له،
انطفأت نجمتي الوحيدة
ولا تشرق عليّ سوى شمس الكآبة السوداء.

وعندما يُستأنف القتال، أمشي في اتجاه المكان الذي يُسمع فيه الرصاص فيما تفرّ الناس منه مبتعدة. أريد ألّا يفوتني شيء، أن أكون وسط ما يحدث، حاضراً في اللحظة التي يسقط فيها أحدهم أرضاً فأحاول سحبه وإسعافه لأعود إلى البيت وقميصي مبقّع بالدم. يجتمع عليّ والداي وتنضمّ إليهما عمّتي على قدر إمكاناتها، فيتّهمونني بأنّني أسعى إلى الموت وأنا أعدهم بالتوقّف، لكنّني أهرع في اليوم التالي لتضميد الجروح وسماع صراخ المتألّمين.

ثمّ جاء الهدوء من حيث لم يطلبه أحد فلا يزال لدى الطرفين مقدرة ورغبة في الاستمرار. هدنة غريبة غير معلنة دخلت أسبوعها الثالث، فصار الوقت يتمدّد ثقيلاً كأنّ الحياة لم تعد تجدي نفعاً، لا بهجة فيها ولا انتظار. أمّي جدّدت زياراتها إلى صديقاتها، وأبي يستمع لأغنية "عندما يأتي المساء" وهو يدقدق النعال، وأنا أدور في مربّع حارتنا مثل روح هائمة وأقترب من حدود الحيّ المقابل كي أعاين ما يحدث فيه. أطلّ على المدرسة الجديدة التي قبل أن يدخلها التلامذة سكنها

النازحون من أحياء أخرى، مثلنا، خوفاً على حياتهم، فتخرّبت نوافذها واتّسخت جدرانها من المواقد التي كانت تشتعل داخلها.

كنا نحارب النهارات ويستبدّ بنا الأرق في الليالي حتى انهالت علينا القذائف ظهراً، سقطت من السماء، قتلت وجرحت وتصاعد من أثرها الدخان والحرائق. نجا بيتنا لكنّ والدي لم يكن يحسب حساباً لمدفع الهاون من عيار 81 شرقي لمّا استأجر منزلاً سقفه من القرميد، وفهمنا أنّ القذيفة التي حطّمت مطبخ أمي كانت مجرّد طلقة تجريبيّة أولى. كان الحذر أفقيّاً حتى الآن، نخشى من رصاص القنص، وبعد ذلك أُضيف الخطر العمودي، فبتنا ننظر من وقت إلى آخر حتى السماء من دون أن نعرف كيف نحتمي منها. قصفونا ليلاً في المرّة التالية فلم يُبلّغ عن ضحايا، كأنّ الظلام ابتلع قذائفهم. في الصباح، غاب والدي. قصد قرية جبليّة أخبرنا كم أهلها مسالمون وعاد يوزّع الأوامر بالنزوح.

"الثالثة ثابتة"، قال.

كان هذا خروجنا من مصر، نزوحنا الأخير والنهائيّ من مسقط رأسنا.

سبقناه، أنا وأمّي وعمتي، على أن يتبعنا في وقت لاحق بعد أن يتدبّر أمر أثاث البيت. سرنا على إيقاع المريضة ونحن نجرّ حقائبنا. اجتزنا النهر من فوق عبّارة خشبيّة مخلّعة، ولمّا وطئت أقدامنا الأرض الصّلبة من جديد وتسلّقنا تلّة مشرفة، وقفتُ أسترجع أنفاسي وأتأمّل البلدة. ثمّ صرختُ مثل ذئب السهوب من عمق جوارحي صوتَ فرَحٍ نحو السماء يشبه زلاغيط النساء يوم عرس مَن يحببنَ، كأنّني خرجتُ سالماً رابحاً من عراك تُكال فيه الضربات حتى الموت. خرجتُ إلى الدنيا، صار لي جناحان وأكاد أطير، كتبي معي ولا أعرف شيئاً عمّا ينتظرني لكنّني متحمّس لمصيري. على جري عادتها، خافت أمّي من تقلّب

مزاجي المفاجئ فضمّتني إلى صدرها وقبّلتني في رأسي تهدّئني. تذكّرتْ عمّتي في تلك اللحظة بيت شعر لإيليا أبو ماضي، فقالته بكلّ فصاحة وهي واقفة في ظلّ شجرة حور:

أيُّها الشاكي وما بكَ داءٌ
كُنْ جميلاً ترَ الوجود جميلا

ابتعدنا باتجاه الطريق العامّ كي نعثر على سيّارة أجرة تقلّنا إلى وجهتنا الجبليّة، أخرجتُ بوصلتي أحرّكها ولا أعرف إلى أين أريدها أن ترشدني، بينما كانت طائرتا "هوكر هانتر" تحلّقان في سماء البلدة وترسمان وراءهما في الهواء خطّين من الدخان الأبيض. سمعنا دويّاً عميقاً قبل أن ندير ظهورنا ونمشي.

مِراسُ الحبّ والكتابة

اختار لنا أبي مكاناً هادئاً أعتقِد أن له فيه ذكريات نسائية لطيفة. قرية يعرف أهلها سرّ صناعة نبيذ حلو المذاق يبيعونه ونادراً ما يشربونه. يتجمّع مهاجروها في حيّ واحد في ضواحي مدينة سبرينغفلد في ولاية إلينوي الأميركية حيث لهم مدرستهم وكنيستهم ومطاعمهم. يقولون إن هناك خلف البحار مواطنين لهم أكثر من المقيمين هنا على علوّ 1700 متر. يسخّرون الدواب مع أفضلية للبغال في الانتقال إلى كرومهم المنحدرة. يربّعون الحجر بشطارة ليصنعوا منه أجراناً لتنعيم اللحم، ينحنون ليشربوا طويلاً من رأس الغزال الذي تتدفق منه الماء إلى بركة وسط الساحة ويطلبون راكعين باسطين أياديهم شفاعة قدّيسَي كنيستهم الضابطين في الجيش الروماني وقد قُطع رأساهما عندما انكشف أمر اعتناقهما الدين المسيحي.

حملت معي مؤونتي من الكتب وقد صحّ توقّعي أنني لن أجد صديقاً أو جاراً يمدّني عند الحاجة بما يروي عطشي الدائم للمطالعة. أحذر من استهلاك ما في حوزتي من كتب وهو شعور لا إرادي، إحساس دائم بالنقص رافقني وما زال وجعلني أخشى ألّا أجد ما يؤنسني في أيامي الأخيرة. لم أتخيّل تقاعدي إلّا وحيداً أو ترافقني فيه امرأة صامتة عاتبة على الدنيا وأكون جالساً أمام طبيعة ربيعية من خلف فتحة زجاجية واسعة على كرسي هزّاز من الخيزران يعذّبني الفراغ ومجابهة مرور الوقت أكثر من همّ الموت. صرت أعمد حتى قبل بلوغي العشرين

من العمر إلى التوقف في منتصف كتاب سحرني تاركاً النصف الثاني إلى يوم بعيد أخافه وقد لا أجد فيه كتباً من حولي.

في هذه الأثناء، راحت تصلنا أخبار بلدتنا المثابرة على حربها. أسلحة حديثة تظهر وقتلى يسقطون، تتسرّب أسماؤهم إلينا مع خارجين جدد من نار الثأر فيعودون إلى ذاكرتنا لوقت وتطلق أمي حسرة عابرة على شبابهم المهدور. بعد وقت قصير، تتلاشى وجوههم من ذاكرتنا وتنطفئ. أبلغنا خبر نهاية فوكس عندما اجتاز الخطّ الفاصل بين الأحياء لجهة المدرسة الثانوية كأنه حاول على ما يبدو العودة إلى حيّه القديم في جيرتنا فانهمر عليه الرصاص من الجهة المقابلة. طاردوه كهدف متحرّك اختبروا عليه دقة التصويب ببنادقهم نصف الأوتوماتيكية فأردوا الكلب العجوز الذي كان يجرجر نفسه ولم يعد صالحاً للصيد. كذلك علِمنا بوفاة جارنا السابق صاحب الطربوش الحميدي.

"مات ميتة ربّه"، قال أبي ويقصد أنه لم يصب بالرصاص، فقلت في نفسي إن زوجته التي كان يوسعها ضرباً ستلبس عليه الأسود طويلاً.

"حتى تموت بدورها"، قالت أمّي.

تصالحت مع نفسي في هذه المرتفعات، انجلت كآبتي، تركتها في بلدتي محبوسة داخل صندوق ثياب عمتي الذي لم يجد والدي سبيلاً لحمله معه إلى إقامتنا الجديدة. اضطر في النهاية إلى العودة وإخراجه لأن عمتي لم توقف تذمّرها وأنينها الخافت. فهي لا تغادر البيت إلّا في ما ندر؛ ليس لديها صديقات فتمضي الوقت بين ثيابها وزينتها. تتمهّل في الاستحمام يومياً، ترتدي ثوباً جديداً وتمضي أكثر من ساعة في السهر على أناقتها. كانت تناديني قبل أن تُصاب بالفالج النصفي لأجلس إلى جانبها وهي تبودر خدّيها باللون الزهري وتنزع بالمقصّ

الرفيع الشعيرات من داخل أنفها. بعد مرضها، كنت أعرف ماذا تريد وهي جالسة أمام مرآتها، جسمها مائل إلى جهة اليمين أساعدها على تقويمه لكنه يعود إلى الانحناء بعد قليل فأعطيها بالترتيب أدوات زينتها وموادها. وعندما تنتهي، ترسم ابتسامة بين الرضى والألم وتردّ فقط على السؤال الذي كان يراودني دائماً: ''أموت إن لم أفعل ذلك''.

تعلّمت من عمتي أن الأناقة لصاحبتها وليست للآخرين. مكافأةً لي تطبع على جبيني قبلة طويلة كأنها تودّعني ثم تقف وتستند عليّ فنمشي الهوينا إلى غرفة المعيشة لتجلس حتى موعد الغداء على أريكة الخيزران حيث التُقطت لنا الصورة مع فوكس النائم بين أقدامنا.

عمتي ركيزة بيتنا. تخصّها أمّي بمشاعر متناقضة، أجدهما تتهامسان، تتواطآن على أحوال الدنيا وعلى الجيران خاصة، وبعد مرضها صارت أمّي تحكي لها الأخبار وهي تحاول الابتسام. تدعوها إلى الغداء يومياً باحترام وتخدمها بعدما عجزت عن تدبّر جميع أمورها. تردّ عنها الانتقادات لكن تتحيّن فرصة غيابها لتنعتها فجأة، كأنها تعبت من الدفاع عنها، بأنها ''بنت هوى''، وهو تعبير أمّي الملطّف للمومسات. كان الفرق كبيراً بين المرأتين فأمي من النساء ''البلديات''، تركت المدرسة باكراً وبرزت لها بعض المفاتن في مطلع شبابها، حركة أرداف أو قصّة شعر. تزوجت بمعلّم شاب كان لديه آنذاك محترف للأحذية ورثه عن والده، يعمل فيه معه أربعة صنّاع. قيل أن أهلها استقبلوا شاباً آخر من البلدة وأطلقوا إشاعة بأن ابنتهم ستتزوج به فضاقت الدنيا بوالدي ولم يستطع منع نفسه من اختطافها. أنجبت منه وتخلّت بعدها مباشرة عن أي ادّعاء بالأنوثة والتصنّع.

انصرفت حتى النهاية لخدمتنا، أبي وأنا. أعتقد أنه يمكن وضع أمّي في عدادٍ لآخر النماذج لصنف منقرض من النساء.

أما حكاية عمتي، فشرح يطول. اختيرت في صباها ملكة جمال في إحدى بلدات الاصطياف فلمع نجمها وتهافت عليها الطُلّاب وحظي بها رجل ثريّ جداً لكن متقدّم في السن يقف على خاطرها ويُغرقها بالهدايا.

نام معي مرتين فقط.

تخبرني وهي تعاملني كراشد منذ بلغت الخامسة عشرة من عمري. دام عزّها أقلّ من سنة واحدة، وتوفّي زوجها فورثت عنه الكثير. جهاز العرس بقي جديداً. فساتين لم ترتديها وأحذية لم تجرّبها حشرَتها في حقائب وسافرت بها إلى البرازيل. وجدت هناك من يدعوها إلى الحفلات الراقصة حتى أسمتها مجلة ''استريلا'' في ساو باولو ''جميلة لبنان''. تزوّجت مربيَ أبقار ثريّاً أرملَ: ''هذا كان لا يشبع''.

طلّقته وتزوّجت من جديد في كولومبيا رجلاً سرعان ما التحق بالثورة المسلّحة، هو الوحيد الذي تقول إنها أحبّته من قلبها، ربما لأنه تركها ومشى. عادت إلى بيروت ومنها إلى القاهرة حيث ظهرت في أدوار سينمائية صغيرة. تزوّجت ممثلاً مسرحيّاً.

''مسكين!'' تقول عنه، أُصيب بنوبة قلبية وهو يؤدي دور مجنون ليلى. كان واضحاً أن موهبتها الوحيدة هي في جمالها واصطيادها الرجال بسهولة وعدم تكبّرها على تقاسم أموالهم. تعرّفت إلى أسمهان وليلى مراد ويوسف وهبه الذي سحرها صوته وكانت عندما تهبط معنوياتها تتذكّر الرجال الذين أحبوها. لا تَحبّ بل تُحبّ. تعدّهم بأسمائهم الأولى على أصابع يديها: خليل، فرناندو، أوغسطو،

عبد الفتاح... وتقترح عليّ أن أكتب قصتها: "لن تجد حكاية مثلها، تنشرها وتصنع لنفسك اسماً من ورائها وتُباع بكثرة، صدّقني!"

أقعدها المرض وأسكتها.

يوم انتقلت إلى بيتنا، حضرتُ فتح حقائبها. ساعدتها أمي وهي تنظر بعين الغيرة إلى مجوهراتها وثيابها الداخلية. كانت تعيلنا بأوراق نقدية من القطع الكبيرة لا ندري من أين تخرجها وتدسّها في يد أبي مرة في الأسبوع. نحن أهلها الوحيدون. صنعة والدي لم تعد تعيلنا، "ضَرَبتها" محلات الأحذية الجاهزة فتطوّعت عمتي لدفع أقساط مدرستي وبدل إيجارات بيوتنا ولا تعترف بوريث لها غيري. مشروعها الدائم والمؤجّل أنها تريد النزول إلى المصرف برفقتي كي تحوّل حسابها الخاص إلى حساب مشترك بيني وبينها فيسهل عليّ الحصول على مالها بعد وفاتها، ولا ينازعني عليه أحد.

في غربتنا الجديدة، تحسّنت أحوالها بسبب المناخ الناشف وصارت تخطو وحدها دون مساعدة من مقعدها إلى طاولة الغداء. المكان هادئ، الشمس دافئة، الأشجار ظليلة، الماء مثلّج والأيام متوقّعة. وحده رجل أبيض الشعر، نحيل الجسم كان يكسر الرتابة، يخيط الساحة منذ الصباح أمام الكنيسة في جميع الاتجاهات، يتكلم عالياً مع عين الماء معرّفاً عن أصله النبيل من دون كلل ويحمل وردة إلى قبر أمّه حيث يمضي النصف الآخر من نهاره راكعاً يبكي.

أما أنا، فقد هدأت خواطري، أتنزه في دروب أشتمّ فيها رائحة الماعز، أسطو على التوت البريّ أينما وجدته وأحفر على جذوع الأشجار أسماء شعراء ملعونين قضوا نحبهم في ريعان الشباب. كتبت مرة وصيّتي بخطّ جميل أطلب فيها إحراق جثتي ونثر رمادها في الطبيعة بينما يُسمع في الأرجاء تسجيل موسيقا

الكيرياليسون، وأهب فيها كل ما أملك لمستشفى الأمراض العصبية الذي يعتني بالمختلين عقلياً، حكماء هذا العالم كما أسميتهم. حشرت الورقة في عنق قنينة كوكاكولا ثم رميتها في نبع صغير ينزل متدفّقاً نحو الوادي.

ثم حدث ما لم أتوقّعه على هذا العلوّ الشاهق وسط مزارعي التفّاح البسطاء وناحتي الحجر. رافقَت والدي سمعته الجيّدة بعد أن حمل معه مؤونة من الجلد الإيطالي وتقلّصت صنعته من محترف فسيح مع طاولات ورفوف وعمّال إلى سندان ومئزر وقوالب خشبية وعدّة تتسع لها علبة واحدة يحملها أينما اتجه. أهل القرية حيث استقررنا يفصّلون أحذية سميكة للحقول والثلوج ونساؤهم ينتعلن أحذية خشنة وسميكة. زارت والدي يوماً شابة لم أنظر إلى وجهها لمّا دخلت لأنّني كنت جالساً إلى جانب والدي تؤنسني روائح حرفته وحركات يديه، منكبّاً على كتابي، فرأيت قدماً بيضاء ناعمة تمتد كي يدوّر والدي قلمه حولها ليأخذ مقاسها. عرفت أن صاحبتها غريبة عن القرية، وذلك من أظفارها المطليّة بالأحمر والمشغولة بعناية.

تصادقتُ معها لمّا تطوّعتُ كي أوصل إليها حذاءها الجديد بعد أن قلّبته بين يديّ، وقلّدت والدي بالنفخ فوق جلده وتلميعه بعناية. تعرّفت في منزلها إلى شقيقتها التي تساويها عمراً وجمالاً. سألتني إحداهنّ كيف أجد الحياة هنا فوجدت نفسي أجيب بكل فصاحة ورومانسية: ”هذه القرية أشبه بالمنفى الجميل لأصحاب النفوس المكسورة، الهاربين من أعباء العيش توقاً إلى سكينة مستحيلة“.

لمعت عيْنَا صاحبة الحذاء. اشتمّت في كلماتي رائحة أُنس ودعتني إلى الجلوس لمشاركتهما قهوة العصر. كان الشّبه بين الأختين تاماً. أنكرتا في البداية أنهما توأمان ثم ما لبثتا أن أقرّتا وبررتا إنكارهما بأن التشابه وفكرة التوأمة يضعفان

من جاذبيتهما. واحدة ترسل شعرها على كتفيها، فيما تقصّه الثانية قصيراً كالصِبية ولا تلبس الأخت فستاناً إلّا وترتدي أختها مقابلها سروالاً. كما تتبرّع التي خرجت قبل أختها بدقائق من رحم أمّها للقول إنها البكر، لكنهما تترافقان دوماً وتتباريان في الإغراء، ما يصعّب المهمة عليهما وعلى من تصادقانهم. أعطاهما والداهما اسمَين متشابهين من مقطعين لفظيين فقط كما بدأ يشيع في تلك الفترة، أقرب إلى أسماء الهررة. تستأجران بيتاً صيفياً مفروشاً، تضجران، لا تجدان شباناً يلبّون رغبتهما الدائمة في إقامة علاقات حميمة. تسخران من ذكور القرية لأنهم يحبّون زراعة شجر إجاص يسمّونه "مخّ البغل" ويحسنون بناء الحفاف بحجارة الصخور البيضاء ويبحثون عن امرأة يمتطونها ليلاً تحضّر لهم البرغل والبندورة نهاراً والكبّة النيئة أيام الآحاد.

لا تكترث الفتاتان لمعرفة كيف وصل الشبان الذين ترفضان عروضهم الفجّة إلى هذا المكان الذي يقول عنه قاطنوه أنفسهم: "لا تسكن جروده إلّا قروده".

أنا كنت أهتمّ. ومع بداية تنافسهما عليّ، صرت أحاول إبهارهما بحكايات قرأت بعضها ونسجت بعضها الآخر حول أهل المكان: يتحدرون من رهبان ونسّاك عاشوا في السهول، في بلاد الشام، وآمنوا مع حلول الألفية الأولى أن نهاية العالم باتت وشيكة. تسلّقوا الأشجار ليجعلوا منها مسكناً لهم. وقفوا فوق أعمدة كانوا يعظون من أعلاها الحشود الطامعة بالمعجزات، واستوطنوا الصحاري وربطوا سلاسل الحديد في رقابهم، وأكلوا الأعشاب والحشرات، ثم صعدوا إلى الجبال احتماءً، ولا تزال فكرة يوم القيامة القريب تطاردهم حتى نسوها وعادوا يسعون إلى رزقهم في هذا المكان الجميل. واستقيت لهما من أحد كتب التاريخ أخباراً أخرى مثل ضرب أجداد هؤلاء المزارعين بالمنجنيق على يد عسكر الملك

قلاوون وحصارهم في مغارة ماتوا فيها عطشاً، كل ذلك بسبب تعاونهم مع الصليبيين فلحقت من خانهم ودلّ العدو على مخبئهم لعنة دامت أجيالاً.

سئمتا رواياتي الخرافية؛ كانتا تطمعان بالإثارة هنا والآن. أختان متفرّغتان للأُنس والعبث فكنتُ أستجيب لعروضهما وأستمع لأسرارهما. أصغي إلى كل واحدة على حدة وأنا لا أعرف الاختيار بينهما حتى فازت بي في النهاية الأكثر إقداماً وسحراً، صاحبة الشعر القصير. رضيت الثانية بقسمتها من دون حرد كأنها معتادةٌ تفوّق أختها في السباق على الشبّان. اشترَطَت فقط أن أخبرها بالتفصيل بما يجري بيننا عندما تخلي لنا البيت أو نذهب وحدنا في نزهة إلى غابة صغيرة. نتمدد في فيء أشجار الصنوبر، نتبادل القبل الحارة ونستمع لخرير الماء أو عواء أبناء آوى. تريد الرواية من جانبي وليس من فم أختها. أخبرها في اليوم التالي ما حدث فتصغي وهي تغمض عينيها. كنت أحرّف لها الوقائع قليلاً لأخفي كوني مبتدئاً في أمور الجنس ويصحّ فيّ القول إنني لا أزال بِكراً. اقتصرت مغامراتي العاطفية في مسقط رأسي على هجوم مباغت من جانب جارتنا السمينة التي كانت تطلب من مار إلياس نصرتنا على أعدائنا في الطرف الشرقي من البلدة. حشرتني يوماً في المطبخ إلى جانب البرّاد، وفتحت عن صدرها وانهالت عليّ بالقبل والتأوهات. لم يحررني منها إلّا صوت عمتي تحاول مناداتي بعدما سمعت ضجتنا واعتقدت أن غريباً دخل إلى البيت. الباقي كان تبادلاً للنظرات الواعدة كما حدث لي مع تلك الفتاة السمراء التي كانت تلاحقني بعينيها الخضراوين. جمالها في سمار بشرتها الحاد وخضرة عينيها. قالوا إنها توزّع اهتمامها على الجميع من أمام محلّ والدتها لبيع الأقمشة والأزرار حيث تداوم طوال النهار. كانت صورتها تزورني مساء. أُدخلها إلى مطالعاتي وأُجلسها إلى جانب شخصياتي الروائية

فعبرت ذات صباح بشارعها وقد بتّ مقتنعاً أنّني سأنجح في ممارسة غوايتي الصامتة عليها. سمعت صوتها قبل أن أراها، كانت المرة الأولى التي أسمع فيها صوتها تصرخ في وجه أمّها معاتبة في شأن من شؤون الدكّان. لها صوت رجل بلهجة ثقيلة ومفردات قاسية. بحّة رجل غاضب. استدرتُ وعدت أدراجي بعدما انهار حلمي القصير بها فأخرجتها نهائياً من مملكة خيالي.

مع الشقيقتين التوأمين، سقطتُ لأول مرة في مرجل الغرام دفعة واحدة حتى رأسي. فالتي أحبّتني من بين الأختين كانت تلقّنني من دون كلام فنّ التقبيل والملامسة، التمهل وإشباع الأحاسيس، تُهدئ من غلوائي وترشدني في خريطة جسدها إلى ما تجد فيه لذّتها. تستولي عليّ، تتحكم في مشاعري وتثيرني حتى أنتفض وأرسل نفسي بعنف على هواها فترتجف هي وتصرخ من سعادتها. أُسكتها لأن شقيقتها قد تكون منصتة من خلف الباب، لا بل كنت متأكداً أنها هناك تسترقّ النظر من ثقب الباب وتلتذّ بالسمع في هذا البيت الذي لم أشاهد فيه لا أباً ولا أمّاً ولا أخاً طوال الأيام التي أمضيناها معاً. بتنا منهمكين في تكرار مبادلاتنا اليومية حتى غاب عني سؤالهما عن أحوالهما العائلية.

بعد مقدمات خجولة، دخلنا مرحلة اشتباكات بدأتها هي فجأة يوم صفعتني على وجهي بقوة لما اقتربت منها ساعياً إلى قبلة. كانت تحاول الاحتفاظ بالمبادرة وقيادة العربة بحصانين. وقفت حائراً في أمري فضحكت مني عالياً، وفرّت من أمامي فطاردتها وحشرتها في الزاوية وتضاربنا بالوسادات ثم انقلبنا أرضاً ونحن نتعارك. نختلف نهاراً ونتصالح ليلاً فصار الشجار لعبتنا، لعبة الحرمان والتأجيل كي يحلو الوصال. تقفل على نفسها باب غرفتها من الداخل وتطلب مني البقاء خارجاً ساعة كاملة قبل الفوز بها. أنتظر جالساً في الصالون فيستولي عليّ

الضجر أو تشدّني الرغبة إلى قهر ذاتي. أنهض للمغادرة قبل انقضاء الساعة لكن ما إن أخطو باتجاه الباب الخارجي، حتى أسمع باب غرفتها يُفتح لتلحق بي وتعيدني إلى اللعبة. اعترفَت لي أنها كانت تتلصص عليّ من الداخل، من ثقب الباب، يثيرها مشهد توتري، إيماءات وجهي، تكراري المحموم للنظر إلى الساعة في معصمي، حركات جسمي وأين تتجه عيناي. تسحبني من يدي لنرتمي فوق أريكة الصالون فهي لا تحبّ الأسرّة وغرف النوم ولا تنزع كامل ثيابها. عند كل موعد لنا تختفي أختها بسحر ساحر، باتفاق مسبق أو بإشارة منها، فيتحوّل البيت مسرحاً لنا. نكتفي بضوء الغروب الدافئ الداخل علينا من النوافذ فنلعب في تلك اللحظة الملتبسة بين النور والعتمة أدواراً كنت أتذكرها من كتبي وأوزّعها علينا. ألفّ رأسي بقماشة سوداء يضعها القراصنة لأكون عطيل العربي شاهراً خنجره المسنون وهي ديسديمونا، جميلة ''البندقية'' العاشقة. أمشي منحنياً معاقاً مثل كازيمودو يدقّ أجراس كاتدرائية سيّدة باريس فترقص هي مثل ايسميرالدا الغجرية. بعد اعتراضها على هذه الأدوار الحزينة، صرت دون كيشوت يسعى وراء دولسينيا، وهي تلفّ نفسها بستارة النافذة البيضاء الشفافة كحلم يصعب الوصول إليه منذ أخبرتها ألا وجود لها، وأنها من اختراع الفارس ذي الوجه الحزين. ومن بعدها، صرت مهرّجاً يمدّ لسانه صوب شمس الغروب ويضحك من دون سبب. تبادلنا اللباس مرة فكانت الرجل بسروالي الضيّق، وكنت المرأة بفستانها الواسع، نلعب بجديّة ومن يضحك لا يكون أهلاً للاختبار. ويوم جلبتُ معي دفتراً وقلماً ووقفت أمامها أدّعي الشروع في الكتابة وأعلن دوري الجديد: ''أنا كاتب الأميرة ومؤرخ سيرتها جاهز لتدوين أقوالها وأفعالها ساعة بساعة''، انتزعت القلم من يدي وقالت: ''وجدتها! ستكتب لي كل يوم!''

فاعترضتُ بالقول إنني قارئ فقط لا عهد لي بالكتابة. أقنعتني بما لديها من أساليب، جلست في حضني، طوقتني بذراعيها، همست في أذني، عضّتني، خرمشتني وقبّلتني في عنقي حتى توصلنا إلى اتفاق صارم أكتب لها بموجبه رسالة كل يوم أرغب فيه في لقائها، صفحة كاملة أرمي فيها مشاعري تجاه ما يجري بيننا أو في أي مسألة تخطر في بالي.

"اترك نفسك على هواها"، قالت لي، وصرت عندما أقرع الباب تسألني قبل أن تفتح لي إن كنت قد جلبت معي الرسالة فأسلّمها إياها قبل أن نستسلم لألعابنا.

كانت تلك كتاباتي الأولى بعد مواضيع الإنشاء التي لقيت إعجاب أساتذتي في المدرسة وكانوا يقرؤونها عالياً على مسامع باقي التلامذة. في البيت، أتحمّل تلميحات أمي القلقة كالعادة من الحمّى البادية للعيان في سلوكي. تحذّرني من ارتكاب ما تخشاه وهو فعل مبهم لم تحدده لي يوماً حتى أتعرّف إليه إن صدر عنّي. تخبرني، على سبيل المثال المضاد، حكاية شقيقتها الصغرى، خالتي التي لم أحفظ منها سوى صورة وجه ضاحك، طافح بالسعادة، تمازح الجميع وتقبّل الجميع. شُقّت الأرض ذات يوم وابتلعتها، خرجت من البيت تلوّح بيديها ولم تعد. انكشف جزء من سرّها لمّا شاع بعد أيام خبر اختفاء ربّ عائلة شوهد أحياناً يتحادث معها خلسة. سافرا إلى أفريقيا حيث يعملان في التجارة وتقول أمي إن عائلته تنظر إليها شذراً وزوجته تشتمها وتشتم عائلتها بالصوت العالي كلّما التقيتا في الشارع أو عند السمّان.

ها أنا كبرت ولم تعد أمي تعرف كيف تعتني بي فاستسلمَت لقدر تبتهل فيه لله فقط ألا يكون قاسياً. أجلس للكتابة إلى الطاولة التي يعمل عليها والدي، هو يصنع الأحذية وأنا أصنع الجمل، فتحضر الصور، شعلتها رغبتي الجسدية في صاحبة

الشعر القصير. أكتب لقارئة واحدة وأشعر دائماً أنني أنهل من معين لذّة لا تنضب. تأتيني العبارات من كل صوب، أي تفصيل عادي يحوله قلمي إلى كلمات حارة تقرؤها صديقتي في فراشها ليلاً وتدسّها تحت مخدّتها قبل أن يأتيها النوم. تنام عليها كما تخبرني، وتضيف أن كلماتي تحرّك فيها مشاعر راقدة من زمن.

اثنتان وأربعون رسالة. كنت في التاسعة عشرة من عمري لمّا كتبت هذه "الفروض" اليومية. لا أعرف من أين أخرجتها، بأي ألفة مع اللغّة العربية دبّجتها، ومن أي خيال نَضَبَ لاحقاً مع تقدمي بالسنّ أضفت إليها النكهة والأزهار. نسيتها باستثناء تعابير أو كلمات منفردة بقيت في ذاكرتي، كأن شخصاً آخر كتبها أو كأنّني رصفتها في حالة من التجلّي، من الانخطاف. فمن أين جاءتني القدرة على ابتداع كلام من نوع أن العالم كان مليئاً في هذا الصيف الأرجواني، صيف الشقيقتين الذي كنا نشرب إكسيره يومياً، بالأزهار العدائية، وما هذه الأزهار العدائية؟ وموسيقا الشرفات الليلية التي تنهى المراهق عن أنانية لا متناهية؟ كما كنت أقول في نفسي، أي لذّة ستجد صديقتي عندما أكتب لها في إحدى الرسائل: "الأموات يحدقون في ما حولهم، لا يصدقون انفعالنا، أبله الساحة يشرب من عين الماء ويضربه الحنين إلى بلاد لم يغادرها".

أكتب بسهولة منقطعة النظير، الكلمات تشرشر مني، أنهل من دون توقّف من فوضى المشاعر والأشياء في عالم لا نظام له، يلطمني بإمكاناته فأفتح فيه بالكلمات كوّة معنى سرعان ما تنغلق. كان في رسائلي هذه عصارة مضيئة انطفأت لما طوينا صفحة ونزلنا إلى بيروت. أمضيت صيفاً فريداً ارتميت فيه في أحضان امرأة صبيّة أرجح أن أكون اخترعتها من قصاصات مطالعاتي وعجزت أو حتى رفضت التعرّف إليها على حقيقتها ولن أعرف إن هي وجدت. كانت

تساهم باقتصادها الكبير في إيراد تفاصيل حياتها على مسمعي في إبقاء الضباب المثير يلفّ سيرتها.

بدا كأن هذا الصيف المذهل لن ينتهي، مشاعره قوية لن أنساها وأشباحه تحوم فوق رأسي، وإذ به ينقطع من دون إنذار. أُسدلت الستارة فجأة من دون مشهد الخاتمة، اختفت الشقيقتان من البلدة في الصباح، سيارة تاكسي وصلت من بيروت وحملتهما على عجل مع حوائجهما. قصدت بيتهما مع غروب الشمس على جري عادتي استعداداً لسهرة جديدة تؤرجحنا بين ألعاب الشهوة المبتكرة والخيال الأدبي المتدفق فأخبرتني صاحبة البيت بأنهما دفعتا لها المتبقّي من الإيجار. سألتهما قبل أن تنصرفا إن كانتا تريدانها أن تحجز لهما البيت للصيف المقبل فقالت إحداهما إنهما لن تعودا إلى هنا بعد اليوم.

وقفت مكبوتاً متأملاً في حالي، فواستني المرأة بالقول إنني شاب جميل وسأحظى بالأفضل ساعة أشاء وإنّ سلوكهما لم يعجبها في كل حال.

لم أقتنع بكلام صاحبة البيت، بكيتُ لما اختليت بنفسي كما لم أبكِ منذ انطفأت كآبتي. بالغت في الصراخ والتأوه حتى أفرغت ما داخلي ثم انتبهت أنني أفتعل البكاء كي يتملكني الحزن وتكون لي مشاعر متناسبة مع لحظة فراق أليم كهذه. تخلّصت لاهثاً من كل ما يعيدني إليها، صورة لها بثياب البحر أو مجسّم لـ"أبو الهول" أهدتني إياه. أعطيتها في المقابل البوصلة التي أهداني إياها قريبي البحّار ولم أهدها من الكتب سوى ما لديّ منه نسختان لكنّني أعتقد أنها لم تكن تحبّ المطالعة. كنت فتيّاً وكان النسيان سهلاً عليّ وكنت أسترشد بقول قرأته عرضاً في سنّ مبكرة في كتاب نسيت حتى عنوانه، وفهمت منه بعد أسبوع على هذا الفراق المفاجئ أن الحب مرضٌ لكنه من النوع القابل للشفاء. والحقيقة أنني كنت مع

دخولي عالمها وتعرّفي إلى شقيقتها وبيتهما والقرية الجالسة على المنحدر أبني من هذا كله رواية ترضيني ولا يمكن لأحد انتزاعها مني. عاشت معي لبعض الوقت قبل أن يجرفني ضجيج المدينة ويصيبني بالنسيان.

ساعدني على المضي قدماً حتى آخر الصيف خريف دافئ بألوانه البرتقالية المتدرجة كنا نتمتع به عمتي وأنا على طول طريق محاط بأشجار الحور والصنوبر. أحمل معي كتاباً أفتحه بيدي اليمنى وأسند عمّتي بيدي اليسرى، وأرخّم صوتي وأنا أعاود القراءة لها بعد انشغالي الطويل بالتدرّب العاطفي. أحافظ على رشاقة مشيتي إلى جانب عمّتي وشمسيتها البيضاء الصغيرة المطرّزة دائرتها، التي أخرجتها للمرة الأولى رغم لطافة أشعة الشمس، من صندوق ثيابها. أتخيلنا داخل رسم مائي انطباعي لأحد الأرياف الإنكليزية، لا ينقصنا سوى القصر العتيق الذي يظهر عادة في أفق هذا النوع من اللوحات إضافة إلى فرسان وكلاب صيد يطاردون الثعالب والغزلان في أجمل البقاع. أتوقف أحياناً لأرمي حجراً في عبّ شجرة جوز أقشّر ثمارها فتسودّ أصابعي وأطعم عمّتي التي لم تكن غافلة عن معشري في الأشهر الماضية. ها هي بعد صمت مطبق حلّ عليها كعادتها منذ خروجنا من المنزل تُسمعني فجأة بلغة تامة ما اعتبرته خلاصة لحكايتي الصيفية ومختصراً لمغامراتها العاطفية هي كذلك:

لا تأمنن إلى النساء ولا تثق بعهودهن
فرضاؤهن وسخطهن معلقان بصدورهنّ

مع بدء هطول الأمطار التي كانت تحتجزنا داخل المنازل حول النار حيث تغفو أمّي وعمتي مع شعورهما بالدفء، صار المكان قاحلاً، وقرر والداي اللذان سئما

بدورهما السكنى في البلدات الكئيبة خصوصاً أمّي التي أمضت الصيف وحيدة من دون معارف، قررا استئناف ترحالنا واختارا النزول إلى بيروت.

قمقم المدينة

أقمنا في الدور الرابع من بناية قديمة الطراز، من دون مصعد؟ حُفر في الحجر على عتبة مدخلها: "الملك لله بوكالة الحاج عبد الرحمن اللبّان". ولم تكن شقتنا تطلّ على الشارع العام بل على بنايات أخرى تدير ظهرها هي أيضاً لشارع "الجنرال ويغان" الموازي لشارعنا. تهبّ علينا هناك روائح غريبة عندما يكون الهواء شمالياً وتصلنا الدعوات الخمس إلى الصلاة من مسجد "أبو بكر الصدّيق". لم أكن معنيّاً بالشأن المنزلي باستثناء بعض المهمات المتقطعة وانتباهي إلى عمّتي التي كانت تطالبني بأن أقرأ لها من كتبي وأنا أتهرّب. كان المطلوب منّي أن أتفرّغ لدروسي الجامعية فقط بعد أن نجحت بسهولة في شهادة البكالوريا فرع العلوم الإنسانية وساعدت المرشّحين الجالسين في جواري رغم غيابي القسري عن المدرسة.

استجبت لنداء المدينة. المدينة التي كنت قد قصدتها مرة واحدة قبل ذلك برفقة والديّ، كنت في العاشرة من عمري. أتينا من الشمال البعيد إلى طبيب معروف أخبرنا وهو منحنٍ يقرأ في مجلّة علمية أنني مصاب بالتهاب السحايا. قالها بالفرنسية: "ماننجيت". لم آبه لمرضي، من صغري وأنا أترك في كل شأن العناية والقلق لوالديّ. طوّقتني أمي بذراعيها بينما ألصقت أنفي على زجاج سيارة الأجرة التي كانت تعود بنا إلى بلدتنا وصرت أتأمل الأرصفة وشرطيّ السير والأعمى يقوده كلب ويبيع أوراق اليانصيب عند تقاطع الطرق.

جعلني هذا النداء الغامض أنهض كل صباح وأنطلق كالقذيفة، أتدحرج على السلالم وأنا أنهي كعكة إفطاري وأكمل تزرير سترتي. لا عمل ينتظرني ولا صديق أتواعد معه، أخرج وحيداً إلى الشوارع كي أخرج إلى الشوارع، كي لا يفوتني ما قد يحدث فيها أثناء غيابي. أعود في ساعة متأخرة يكون فيها والداي وعمّتي نياماً مع أنني أعتقد أن أمي لا تغمض عينيها إلا بعد أن تسمعني أغلق الباب خلفي، أشعر بها تنقلب على كتفها اليمنى لتذهب في سبات مطمئنّ. لم يكن أحد يعرف والدي في هذا الحيّ البيروتي الفقير. بدأ من حاجته ومن ضجره واقتناعه أن حضور الرجل في البيت ثقيل، جولة على معامل الأحذية ولم يلزمه الكثير لإقناع مدير ''الحذاء الأحمر'' الذي زاره أولاً أنه حرفيّ ماهر. عيّنه مشرفاً بأجر لا بأس به وصار يداوم يومياً، يسهر على اختيار الجلد وتصميم الموديلات وكان ذوقه فيها كلاسيكياً، نموذجه الأمثل الحذاء الإنكليزي. يسهر على اللصق والتسمير، يُتعب العمّال ويحبّهم، يتعب بدوره وينام باكراً، أحياناً حتى قبل دخول أمّي وعمّتي إلى سريريهما.

حاولت أمّي من جهتها، لكي تُدخل حياة إضافية بينها وبين عمتي، تشكيل ألفة تذكّرها بحارات مسقط رأسها فبدأت دعوة نساء البناية إلى قهوة الصباح. أول من استجاب كانت سيدة أرمنية لا بدّ أنها كانت تشعر بغربة مماثلة لغربة أمّي. زوجها معروف بمهارته في تصليح السيارات. لم تكن الجلسة الأولى مفيدة بين صمت عمتي واللهجة العربية المكسّرة لجارتنا حتى انضمت إليهنّ لاحقاً امرأة بيروتية بلهجتها الغليظة وكنت إذا تأخرت في البيت لا أسمع سوى صوتها. صادرت الكلام، هي بنت المحلّة ومستمِعاتها غريبات. تعلّمهن بالتفاصيل الدقيقة وصفة تحضير الملوخية على الطريقة اللبنانية أو الكبة الأرنبية بالحوامض السبعة.

اكتمل المجلس بعانس كانت تشتغل الصوف بالصنارتَين، كنزات وشالات لن يلبسها أحد، وفي كل مرة تتكلّم كانت تخطئ في تعداد قطب الحياكة فتضطر إلى الإعادة وهي توبّخ نفسها عالياً: ”أقفلي فمك يا مُطيعة“.

هجرتُ البيت ربما لأنه أكثر البيوت التي أقمنا فيها كآبة وطلّقت كتبي أيضاً. توقفت عن القراءة لأنّني لم أجد في البيت مكاناً يناسبني للمطالعة. حاولت تدبّر جلسة ترضيني أو ترضي صورتي عن نفسي قارئاً لكن الغرف كانت معتمة والشرفة ضيقة تمنعني من بسط رجلَي وتضعني في مواجهة جدران بائخة الألوان وحبال غسيل في البناية المقابلة تفصلنا عنها بورة رُميت فيها بقايا وعوادم لا شكل لها.

هجرتها نهاراً وهجرت القراءة، لأنني ربما كنت أجول في بيروت وسط خرافة كبيرة تغنيني عن خيالات القصص وألغازها فتركت كتبي في صناديقها كما حملتها معي من قرية الصيف ورحت أقصد الجامعة سيراً على الأقدام. أمضي النهار أقرأ كل ما يُقرأ في الشوارع. أسماؤها إذا وجدت على لوحات ما عاد يعتني بها أحد، يافطات المتاجر التي تفقأ عينيّ بلغاتها المتعددة، إعلانات وأوراق نعي، قوائم المأكولات وأسعارها الملصقة على أبواب المطاعم، أسماء سكان البنايات عند مداخلها وعناوين الصحف في أكشاك المكتبات. يناديني ما لا يُقرأ أيضاً. الألوان الزاهية في بعض واجهات المباني وخشب النوافذ، الجدران العالية التي تأكلها التعريشات والأزهار اليابسة وتخفي بيوتاً قديمة وعائلات عتيقة على طريق الانقراض تعيش حياة صامتة لها قواعدها اليومية الصارمة من زمان طويل. صائدو السمك بالصنارة الواقفون لساعات فوق الصخور يحمون رؤوسهم بقبعات القشّ، السيدة في المقعد الخلفي من السيارة يقودها سائق في اللباس

الرسمي ويصعب التكهن من هي وما وجهتها في ساعة الغروب هذه. الخارجون من صالات السينما إلى ضوء النهار بعد فيلم هندي تذرف فيه دموع الحبّ مدراراً، الرجال القلائل الحاملون نعشاً يسرعون به إلى مقبرة الباشورة كأنهم تأخروا عن موعد محدد، النساء اللواتي يصطحبن الأولاد إلى شاطئ البحر، الجالس في مقهى الرصيف في الشارع المكتظ بالمارة وحيداً شعره منكوش في كل اتجاه وعيناه مثبّتتان في الفراغ كأنه ينظر في نفسه.

أكمل نهاري منهكاً جرّاء إدماني على اختراع حيوات لمن لم أتعرف على أكثر من وجوههم أو أسمائهم، وتخيّل ماضٍ وحكاية لأمكنة مبهمة فأصعد ببطء أدراج بنايتنا إلى الطابق الرابع، أغفو وأنا أسترجع مواجهة اليوم المنصرم وأستعد لخوض اليوم التالي في الجامعة.

لم أواظب على قاعات الدروس سوى في الأيام الأولى. قال أستاذ الأدب في محاضرته الافتتاحية إن الغاية الأخلاقية السامية هي من مقومات العمل الأدبي الكبير فقاطعته معترضاً أمام ذهول رفاقي. سمح لي بالكلام فرحت أدافع عن مجانية الإبداع واكتفائه بخلق المشاعر. تبادلنا البراهين والأمثلة، فبدا كأن ما جئت به من اقتباسات كانت مقنعة أو أن الطلاب انحازوا إلى زميلهم فصفقوا لي باندفاع عفوي فخرجت ولم أعد تفادياً لإحراج الأستاذ الذي كان قد اقترب من سنّ التقاعد. وفي صفّ الحضارة الحديثة، صحّحت بعد أيام معلومات المدرّسة حول فريتز لانغ والسينما التعبيرية الألمانية، وباستثناء درس الفلسفة، ظُهر الإثنين من كل أسبوع، الذي كانت تمرّ خلاله الشخصانية ومن بعدها الوجودية رجوعاً إلى هيغل وديكارت وصولاً إلى سقراط كحكاية سحرية على لسان أستاذ صاحب طلّة كانت الفتيات يحجزن المقاعد الأمامية للاستماع له وهو يرتجل ببراعة عن ظهر

قلب، باستثناء هاتين الساعتين المثيرتين اللتين كانتا تمرّان بخفّة، صرت أمضي باقي الأوقات في الكافتيريا وهناك أساتذة لم يتعرفوا إليّ إلّا في الامتحان الشفهي آخر العام الدراسي.

بدأت الجلوس وحدي في مقهى الجامعة هذا الأشبه بحوض الأسماك الزجاجي، أتمرّن على حلّ شبكات الكلمات المتقاطعة العملاقة وأنا أشرب فناجين القهوة المرّة بوتيرة متتالية وأشعل السجائر الفرنسية السمراء الحادة، واحدة من أختها، وسط الضجيج وأغاني "الجوك بوكس" وتبادل الخواطر عبر الطاولات. انضمّ إليّ قادمون مثلي من الجنوب والشمال يفضحهم هندامهم ولهجتهم القاسية. لم أتعلّم منهم جديداً فأهملتهم لأتقرّب من فتيات يدخّن لفائف الحشيش ويؤمن بالصداقة "المجانية" بين الجنسين. تعرّفت إلى شاب من آل الأطرش ينادونه الأمير فلا يعترض بل يروي بإسهاب بطولات أقاربه خلال ثورة جبل العرب في سوريا، واستمعت لنقاشات صاخبة حول كيفية الردّ على هزيمة الجيوش العربية في حزيران 1967 وكانت كلمة الفصل في هذا الموضوع لشابين عائدين للتوّ من المشاركة في عمليات عسكرية ضد الجيش الإسرائيلي. تكاثرت أسرار بيروت واحتمالاتها فلمع ضوء في رأسي.

أقنعت أهلي أنني حصلت بفضل تفوّقي العلمي على رحلة مجانية لأسبوع لزيارة الجامعة الأميركية في القاهرة. سرّهم الخبر، فسافرت مع صديقين جديدين إلى عمّان في الطريق إلى غور نهر الأردن للالتحاق بالعمل الفدائي. الواقع أن حربي لم تدم طويلاً. فور وصولنا صادر المدرّبون هوياتنا بخشونة لم نتوقّعها وأعطونا بطاقات معدّة سلفاً للجميع مدوّن عليها ألقاب ورتب عسكرية مضحكة، فكنت الملازم "أبو جعفر" من مواليد نابلس. فصلونا عن بعضنا بعضاً

وأخضعونا لاستجواب مطوّل بلهجة لا توحي بأننا في المعسكر نفسه، نحن ومن يطرح علينا الأسئلة. أراد الضابط الذي كان يرفع هويتي اللبنانية بيده أن يعرف معنى كلمة "ماروني" الواردة في خانة المذهب، فأجبته أنني مسيحي فراح يهزّ برأسه من دون توقف علامة على تشكيكه في دوافع التحاقي بالكفاح المسلّح. في النهاية، وجد حلّاً فعرض عليّ ما أسماه "مهمات خلفية" في التموين أو الإدارة. أخبرته بلهجة منفعلة أنني دوماً نظرت إلى الموت وجهاً لوجه فلم يخفني، وأغمضت عيون القتلى، وألبستهم قمصاناً نظيفة وسرّحت شعورهم، وأضفت كي أشجعه أنني سرقت في بعض الأحيان خواتمهم والمال من جيوبهم. أثرت فضوله فطلب المزيد فأسهبت في سرد أخبار بلدتي وبادلني بيوميات مخيّم "الزرقاء" للفلسطينيين في الأردن حيث أمضى القسم الأكبر من شبابه. وافق على تجنيدي في قطاع "عمليات الداخل" بعدما لمح في عينيّ جنوناً مناسباً للمهمة التي كنت أطمح إليها. تدرّبت بسرعة على المواجهة والاقتحام كالقفز داخل دائرة النار، وتسلّق الحبال والزحف الطويل تحت الشريط الشائك وإطلاق النار على أهداف ثابتة ومتحركة حتى جاء اليوم الموعود.

عبرنا نهر الأردن وتمركزنا ليلاً. كنا ثلاثة، فلسطيني ومصري وأنا، خلف تلّة صغيرة تكشف طريقاً عسكرياً للعدو على ما قيل لنا، نلمح منها أضواء خافتة ونسمع نباح كلاب في البعيد. كنت أشعر في صقيع ساعات ما قبل الفجر برغبة جامحة في ظهور أفراد أو آلية عدوّة في مرمى نيراننا نفرغ فيها رصاصنا. الكلاشينكوف في يدي كأنه فقد صبره. كدت أطلق النار من دون هدف في عتمة الليل البهيم لو لم يمسكني رفيقاي. أكلنا معلّبات أعتقد أنها كانت منتهية الصلاحية فأصبت بعد وقت بإسهال حاد وكنت أقضي حاجتي المتكررة في العراء. طلع

علينا ضوء النهار فأنار منحدرات خضراء تبعث على التفاؤل لكن لم يظهر الأعداء فعدنا من حيث أتينا. قرر ضابط آخر، مسؤول عن العمليات، أن إصابتي بالإسهال جاءت نتيجة خوفي من المواجهة. أنكرت التهمة وطلبت شهادة رفاقي لكنه أعاد إليّ بطاقة هويتي وسرّحني بعدما شكرني على تعاطفي خصوصاً أن الطلب على التجنيد في الكفاح المسلّح الفلسطيني في تلك الفترة كان يفوق الحاجة بكثير. أمضيت وقتاً في عمّان على غير هدى وعدت إلى بيروت وذيلي بين رجليّ.

غبت عشرين يوماً. خافت أمي عليّ من تكرار مغامرة خالتي وصارت عمّتي تنوح بصمت مفترضة أنها لن تراني بعد الآن وسوف تموت من دون عزاء. لكنني فتحت الباب ظهر الأحد، رفعت ذراعيّ وصرخت باللاتينية ساخراً عبارة يوليوس قيصر: ''ها قد جئت ورأيت وانتصرت''. لم أرَ شيئاً في رحلتي، لكنني جئت فوجدت والدي مصروفاً من عمله. يبدو أنه شجّع الأجراء على الانتساب إلى النقابة، وعند أول إضراب اكتشف أصحاب ''الحذاء الأحمر'' أنهم لم يعودوا بمنأى عن الاحتجاجات التي كانت تتزايد في بيروت، بحثوا عن السبب فوصلوا إلى والدي وقرروا طرده. عدت فوجدته ناقماً غير مستسلم يردد أن الحرب مع الرأسمالية طويلة ويختم بآية من إنجيل يسوع:

من يصبر للمنتهى يخلص

تعمّد والدي التعريف عن نفسه في بلدته وبين أصحابه أنه شيوعي فيصدم محدّثه ويشهر في وجهه كتاب ''مختارات من أقوال كارل ماركس''، مترجم إلى العربية، يحفظ بعضها عن ظهر قلب ويدبّجها في نقاشات محترفه للأحذية. يجتمع عليه هناك قبل تعاظم الأحداث الدامية في البلدة جلّاس متعطّلون عن العمل

يحيطون به وبصنّاعه. يلصق لهم على الجدران قصاصات صحف وحكم مثل: ''الإحسان يقطع اللسان'' أو: ''الجالب مرزوق والمحتكر ملعون''، تتقدمها بخطّ عريض آية من إنجيل متّى:

انظروا إلى طيور السماء، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقيتها، ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟

يتحدث والدي عن قوة العمل وتحويلها إلى سلعة وعن استغلال البشر ورأس المال الجبان، لينهي مداخلته بشعار المدينة الفاضلة: ''كلّ يقدّم حسب قدراته ويحصل على قدر حاجاته''. كانت فكرته عن العدالة أقرب إلى روبن هود وهو يقول إنه شيوعي ولو لم نعرف له رفاقاً حزبيين يجتمع بهم. كان عازفاً منفرداً، لكنه لم يكن ملحداً كأنه غضّ الطرف عن هذا الفصل في أدبيات الاشتراكية فواظب على فروض الكنيسة وانتسب إلى أخوية ''قلب يسوع''. يشارك في بناء مغارة ضخمة بمناسبة ولادة السيد المسيح وقد رأيته مراراً يتهامس مع الكاهن ويمشي في الجنازات لابساً مشلح الأخوية من دون أن يشعر بأي حرج.

وصلت الأحذية الجاهزة باكراً إلى البلدة. خان أحد الحرفيين زملاءه، قالوا إنه لم يكن بارعاً في المهنة فاستسهل البيع والشراء. فتح محلاً رجالياً ونسائياً وكان الإغراء للنساء قويّاً لأن صنّاع الأحذية في البلدة ينتجون لهنّ موديلاً وحيداً بسيطاً، فعقد اجتماع في بيتنا حضره بعض الكندرجية ومُنعنا من حضوره. في ليل اليوم التالي، خلع مجهولون باب محل الأحذية الجاهزة، كسروا زجاجه وبعثروا عُلبه لكنهم لم يسرقوا منه شيئاً. في الصباح، اقتيد والدي إلى المخفر حيث أمضى ليلة مع رفاقه. لم يثبت التخريب على أحد لكن وقّع الجميع تعهداً باحترام المنافسة مع أن والدي بقي يصرّ أنها ليست منافسة شريفة. والدي الذي لم

أتأخر في اللحاق بمبادئه، ولو خلف ضباب كثيف من الأفكار وأسماء العلم من دعاة القضاء على الملكية الفردية، فوضويين أو اشتراكيين علميين لتمييزهم عن الطوباويين الحالمين.

عدت إلى كافتيريا الجامعة، أتفادى التحدّث عن رحلة غور الأردن، أمتنع عن الكلام مطلقاً، أجلس وحيداً، أدخّن بالشراهة نفسها وأدخل النقود من دون توقف في "الجوك بوكس" كي تبقى الأغاني تضجّ في الأرجاء. رائحة البحر تصل إلى الجامعة وألوان ما تركه العمران من أزهار دفلى ومانيوليا في شوارع بيروت ينبئ بقدوم الربيع.

لمحت مرة من بعيد منِ اعتقدت أنهما صديقتَا الصيف، تحملان أكياساً كأنهما كانتا تتبضّعان وتسيران على رصيف شارع الحمراء حيث تبدأ الطريق الانحدار نحو مدينة الملاهي. أسرعت الخطى وراءهما لكنهما تبخّرتا عند منعطف فلم أكمل مطاردتي لهما، انتبهت أنني لم أسعَ إلى البحث عن عنوانهما منذ نزولنا إلى بيروت مع أنني أعرف أنهما تقيمان في العاصمة. الفصول تتعاقب والمدينة تتستّر على ألغازها. هكذا في تلك الشوارع التي تضجّ بالحياة عاودني السواد الذي اعتقدت أنه ملازم لأطياف بلدتي الأولى ودروبها الموحلة فقط. كنت على وشك العودة إلى فتح علب كتبي لأتغذّى من جديد بخيالات ومصائر مأسوية لمّا صادفت شاباً في السنة الأخيرة من الإجازة بالتاريخ أعجبني قوامه وطريقة تقديمه أفكاره.

من القلائل حولنا الذين لا يدخنون، أصيب بالربو من صغره، يهرب من الدخان للتنزّه فوق الأرصفة مع من يودّ الإصغاء إليه فتطوّعت لذلك. اندفعت وراءه وصار هو أرسطو، وأنا مشّاؤه الحديث، نذرع تارة كورنيش البحر ذهاباً وإياباً ونُبحر طوراً وسط زحام سوق النجارين وسوق الذهب. عند وصولنا إلى شارع

المصارف يتكهرب الجوّ ويرتفع صوت صديقي، يتحوّل خطيباً ضد الرأسمال المالي، مصّاص الدماء الذي لا وطن له ولا أخلاق. يلفت أنظار المارة ويسترسل حول الدين والمدرسة والعائلة، يسميها أجهزة الدولة الأيديولوجية التي تعيد إنتاج علاقات السيطرة الطبقية بالتدريب على الطاعة وقبول الظلم كما هو ومعاقبة الخوارج المتمردين، أي أنا وهو. داخلَه غضبٌ عارمٌ، يقول إن الثورة لا تروى إلا بالدمّ.

أحبّ رفقتي لأنّني محاور جيّد كما قال مع أنني لا أتذكر نفسي سوى مصغٍ إليه، واطمأنّ إلى كون والدي أجيراً يعيش من قوت عمله. سألني عن الحيّ الذي نقطن فيه فهزّ رأسه وقال إنه مختلط بين ريفيين حديثي النزوح، غالبيتهم من الشمال، ومدينيين من العمّال أو "البرجوازية الصغيرة". كانت مدينة بيروت وتفاصيل تاريخها حاضرة في رأسه على شكل خريطة حرب. لا ينقصه سوى عصا القيادة الطويلة ليدلّ بها على أمكنة نشوب المعارك المتوقعة والفرقاء المتواجهين، دائماً الفقراء ضد الأغنياء، حرب حتى الموت. يحكي عن أهله أيضاً وخصوصاً عن والدته التي ربّتهم بعرق الجبين، كانت تخدم في البيوت فيما والده "البيولوجي" كما يسميه أهملهم لينصرف إلى نزواته. ويحب القول نقلاً عن أحدهم على الأرجح: "وُلدت من امرأة ومن العدم".

فيما بدأت أشعر أننا نعيد بناء العالم معاً، طلب مني في نهاية إحدى النزهات أن أناديه باسمه الجديد، "ليون"، يريد تعوّده لأنه سيدخل في "العمل السرّي"، ستتغير حياته وسيحصل على أوراق ثبوتية جديدة مزوّرة تزويراً دقيقاً. أُصبت بالإحباط، ودّعني، تعانقنا واختفى كما خطط، لكنه لم يغب طويلاً عن ناظريّ إذ رأيت صورته بعد ما يقارب الشهر ملصقة على جذع شجرة فيكوس عند مدخل

الجامعة، شهيداً لحزب صغير مغمور يدعى "منظمة التروتسكيين العرب". كان قتيلهم الأول على ما يبدو، والأخير كما أرجّح.

رحل مبشّري الذي لم يتوقف مرة واحدة عند وصف الجنّة الأرضية المرتجاة بل اقتصر مجهوده على كيفية الوصول إليها وهو الطريق المزروع ألماً وحرماناً. لم أتوقف من قهري عليه عن سلوك الشوارع نفسها والأكل وحدي في المطاعم الرخيصة.

وفي يوم كنت أصعد السلّم الكهربائي في أحد المجمعات التجارية الجديدة لمحت واحدة من الأختين التوأمين تنزل من الجهة المقابلة. تحققنا بالنظرات وهتفنا لبعضنا بعضاً بصوت واحد. تعانقنا وجلسنا في أحد المقاهي نراجع حياتنا من يوم مغادرتهما القرية. لم أكن متأكداً أياً من الأختين كنت أجالس، أنظر مليّاً إلى ملامحها فلا أجد ما يثبت لي أنها صديقتي الحميمة صاحبة الخيال الخصب والألعاب الفاتنة. خفت أن أخطئ فبقيت في العموميات، سرعة مرور الزمن وجمال القرية التي التقينا فيها، وعند الوداع رافقتها بضع خطوات قبل أن نفترق. فجأة استدارت وسألتني بابتسامة خجولة: "لم تعرفني، أليس كذلك؟"

وأمام ترددي أضافت: "أنا هي الأخت التي لم تحبّها!"

كنا واقفَين لا نعرف ماذا نفعل بأيدينا ولا في أي اتجاه ننظر أمام متجر للعطور الثمينة، فقالت بصوت خافت لم أكد أسمعه: "أختي ماتت؛ قتلها زوجها".

شعرت بوجع خفيف في مؤخرة رأسي.

ترصّدها وتبعها إلى منزل صديقها، كان لديها دائماً صديق، حياتها مع زوجها تُشعرها بالوحدة الرهيبة أكثر من العيش بمفردها. أفرغ فيهما كل رصاصات مسدسه، عشيقها كان أيضاً متزوجاً.

تذكرت أنني قرأت خبراً مماثلاً في جريدة تشير إلى الأشخاص بأحرف أسمائهم الأولى تحت عنوان: ”باغتها فعاجلها، جثّتان ومتّهم“، وفيه أن القاتل استسلم لرجال الشرطة من دون مقاومة. أخذَت محرمة ورقية ومسحت أطراف عينيها الدامعتين. خرجنا إلى شرفة تطلّ على المدينة فلمع السؤال في ذهني: ”هل كانت متزوّجة لما تعرّفت إليكما هناك؟“ وأشرت بيدي نحو الجبال.

”نعم، عمل زوجها في الكويت ونحن نمضي الصيف في مناخ طيّب. حاولتُ التقرّب منك كي أمنعها من التورّط في قصة جديدة لكن ماذا تريدني أن أفعل؟ الرجال يحبّونها وأنت لم تشذّ عن القاعدة؛ كانت لها جاذبية خاصة“.

أجهشَتْ بالبكاء. وقبل أن تودّعني قالت إن لديها أمانة لي، رزمة رسائل أودعتها أختها معها خشية أن تقع بين يدي زوجها الذي كان يفتش دائماً بين أغراضها.

”كانت تزورني من وقت إلى آخر لتعيد قراءة هذه الرسائل، تقول إن كتاباتك تمنحها القوة للمضي قدماً فتخرج من عندي بمعنويات مرتفعة“.

تواعدنا مرة ثانية. كان لقاء صامتاً، سلّمتني الرسائل: ”قرأت بعضها وكانت شقيقتي لا تزال على قيد الحياة، كتابات فيها نبض قويّ أحسست به لكنني لم أفهم منها الكثير“.

أعطتني شقيقتها رقم هاتفها، فلم أطرح عليها أسئلة قد أندم على سماعي الأجوبة عنها. أردتها أن تبقى كما عرفتها طوال صيف فقدت بعده لغتي، فصل انقضى بلمح البصر كومضة برق في ليل أنيس. أما الرسائل، فلم أفتحها من جديد بل حشرتها في إحدى علب الكتب.

اتصلت بالأخت مجدداً بعد أسبوعين. رنّ الهاتف لكنني لم أثابر. في المرة التالية، أجابت، سمعت صوتها، ترددت وأقفلت الخط، وفي النهاية، بعد لعبة الهرّ والفأر، أعلنت نفسي فجاهرت بسرورها وتواعدنا على اللقاء. أخبرتني أن زوج شقيقتها سيستفيد من الظروف التخفيفية لجريمة الشرف خصوصاً أنها ارتكبت بالجرم المشهود ولم يبقَ عليه الكثير في السجن.

بين المواساة وتذكّر فصل الصيف، وصلنا بسهولة إلى الفراش لكن عند أولى القبل التي تبادلناها هبطت علينا برودة أفقدتنا حماستنا؛ تخيّلنا نحن الاثنين في اللحظة نفسها الأخت الراحلة، صاحبة الشعر القصير، ممددة بيننا فوق السرير. نهضنا هرباً وارتدينا ثيابنا.

"إنها الأكلة المسخّنة"، قلت لها، افترقنا من دون كلمة وداع. عدت والتقيتها مصادفة في ساحة الشهداء، رأيتها من بعيد تمرّ أمام سينما "ريفولي" فتواريت بسرعة، وربما تكون قد رأتني وذهبت في سبيلها أيضاً.

أما انتصاراً لصديقي المغدور، فأخفيت في سترتي مفكاً للبراغي رحت أجرّح به سيارات "الجاغوار" و"المرسيدس" الفارهة ليلاً أو أمزق عجلاتها في الشوارع المقفرة. وجدت نفسي في ليلة أمام واجهة إحدى المصارف فحطّمت الزجاج برمية حجر وهربت. بحثت عن رفاق له في صفوف هذه المنظمة فلم أوفّق. قيل لي أنهم يبالغون بالسريّة وأن عددهم في كل حال لا يتجاوز عدد أصابع اليدين. قرأت كتبهم التي تكشف ستر العالم بدلاً من تلك التي رافقتني حتى الآن وكانت ترمي عليه ظلال الخرافة. التهمت كمقبلات **الثورة الدائمة** و**النبيّ الأعزل** ومختصراً عن **رأس المال**، ثم تعمّقت في الجدلية المادية واغتراب العمّال عن مصالحهم الحقيقية. تقمّصت لهجة صديقي الراحل وطريقته الحاسمة في تقديم

آرائه كما استدرجت فتاة كي ترافقني في تشرّدي عبر الشوارع وكنت قد صرت بارعاً في اجتذاب الفتيات بما لديّ من مخزون أدبي وشعري يُسكر عقولهن. تنظر إليّ مليّاً، تسألني عن أصدقائي وعن نظرتي إلى النساء وأنا أجيبها حول آلية عمل الاقتصاد في العالم واحتمالات المدينة الماثلة أمامنا، فضعفت حماستها وتخلت عن مرافقتي.

بعد ثلاث سنوات على نزولنا إلى الجامعة من الجرد العالي وحصولي على إجازة في الأدب بأقل جهد دراسي ممكن، كنت أكرّس أسبوعاً واحداً فقط لمراجعة دروسي، شعرت أنني تصادقت مع المدينة. لم تعد تصفعني بأوهامها التي نضبت من فرط استكشافها وأسمائها التي بتّ أحدس في هوية أصحابها حتى أنني صرت أتجرّأ على التكهّن بما ستشهده من أحداث جسام استرشاداً بما عاينته وطالعته وما زوّدني به صديقي الراحل. أمدّ رجلَي في المقهى بكل ثقة وأفتي أمام وافدين جدد إلى العاصمة من طلّاب السنة الأولى بأن الرأسمالية تنتج مأزقها بنفسها. صارت لي سلطة معنوية، أقدّم أرقاماً حول توزّع الثروة في البلد والعائلات الخمسين التي تتمتع بالحصة الأكبر تاركة الفتاتَ للآخرين. في لفتة وفاء لصديقي القتيل، كنت أجزم بمحطات الكلام نفسها التي كان يربط بها أفكاره أن هذا التفاوت الفاضح كفيل في المستقبل القريب بتفجير النزاعات الاجتماعية والقضاء في النتيجة على نظام الطغمة الحاكمة. وهذا ما لم يحدث بالطبع بل خرج شيء آخر من قمقم المدينة.

أبيفانومان

توفّيت عمتي. أخذها موت الغفلة الذي لا يحدث عادةً للنساء. أخبرتني مرة بلهجة السرّ أنها التقطت الحمّى الصفراء خلال رحلة إلى مدينة ماناوس في الأمازون مع زوجها فرناندو. أمضت أسبوعاً ممددة وحدها تحت الناموسية تخدمها فتاة خائفة من العدوى وهو يطارد الخلاسيات. تعافت ولا تزال تخشى ظهور المرض من جديد. انتظرت خروج فيروس "فوميتو نيغرو" من حقائب سفرها فأصيبت بدلاً من ذلك بسكتة قلبية لم تمهلها أكثر من دقائق. مددناها فوق السرير بأجمل فساتينها، لم أبكِ عليها، جلست على كرسي إلى جانبها لا أحيد نظري عن وجهها أتأمل شحوبها وأتخيّل أنها تسترجع في سكونها سيرة حياتها التي ائتمنتني عليها. كان صعباً عليّ الاقتناع بأن الموتى يتلاشون. استغللت غياب الآخرين لحظة من حولي فأخرجت الخرقة من حقيبة زينتها وغطستها بالبودرة الوردية ومسحت لها خدّيها كما كنت أراها تفعل كل يوم، ووضعتُ في عنقها عقدها اللؤلؤ الثمين وحرصت على ألّا ينزعه منها أحد حتى عند إقفال التابوت عليها.

رفض والدي السفر بها إلى مسقط رأسنا، دفع بعض المال مقابل دفنها في مقبرة لطائفة السريان شبه المقفرة في بيروت وجلسنا في صالون كنيسة مجاورة نتقبّل التعازي. كنا في عزّ فصل الشتاء، دخل علينا طوال النهار ثمانية عشر شخصاً

تسلّيت بعدّهم بمن فيهم الكاهن ومساعده وبعض المتعطلين عن العمل الذين يجتذبهم حدث الموت حتى لو كانوا لا يمتّون إلى الفقيد بصلة. نصفهم حضر صلاة الجنازة. كانت الكنيسة باردة والكاهن مسرعاً في تسابيحه كأن النار مشتعلة في قفاه وانتهى الأمر.

غابت عمتي الجميلة، كانت في بيتنا آنية كريستال وفيها باقة من أزهار عود الصليب، بقيت غرفتها مقفلة على حالها وازداد بيتنا وحشة وازدادت وحدة أمّي. وجد والدي عملاً جديداً بعد صرفه من "الحذاء الأحمر" وعاد ليغيب عن البيت طوال النهار. كذلك غادرت جارتنا الأرمنية إلى برج حمّود عند مدخل المدينة الشرقي، كنت حاضراً يوم ودّعتنا، قالت فقط: "المنطقة هنا ليست لنا، خذوا حذركم".

كانت تستبق الأحداث فلم نعر كلامها اهتماماً. أقعَدَ داء الفيل جارتنا البيروتية صاحبة الصوت العالي ووصفات الطبخ الشهيّة، فقدت الشقة كل نكهة فنقلنا سكننا أيضاً مرة جديدة لكننا توجّهنا غرباً.

أعادني موتها إلى بلدتنا الأم للمرة الأولى بعد خروجنا القسري منها. طلب مني والدي مرافقته خلال نوع من الهدنة كانت تسود هناك. قصدنا السراي الحكومي لاستخراج وثيقة وفاة لعمتي تمكنني من نقل حسابها المصرفي إلى اسمي كما جاء في وصيتها، والحصول على هوية جديدة لي بعدما ادّعيتُ أنني أضعت القديمة. نظر إليّ مأمور النفوس بإعجاب وقال لأبي وكان من معارفه القدامى: "لقد صار رجلاً".

تجادلت مع الموظّف صاحب الخطّ الجميل لأنه سارع إلى ملء خانة المذهب في البطاقة الجديدة من دون أن يسألني رأيي وترك في المقابل الأبواب العائدة إلى

مستواي التعليمي ومهنتي ولون عيني وبشرتي وشكل أنفي فارغة. توجّه مأمور النفوس من جديد إلى والدي متجاهلاً اعتراضي: ”يبدو أنه شيوعيّ مثلك“.

ابتسم والدي راضياً.

لم يعد لدينا بيت ولا أقارب في البلدة، أبي وحيد توفّيت شقيقته وخالتي طارت إلى شاطئ العاج، فتسكعنا لساعة من الزمن. لا أثر لما حدث من اقتتال سوى فساتين وعُصابات رأس سوداء ترتديها نساء تظهر وتختفي في الأزقّة. استعدت رائحة الأمكنة، أعرفها عن ظهر قلب، الآن وقد خرجنا من هنا وددت فجأة لو أجلس على كرسي من القشّ أمام عتبة بيت الحجر الصغير مقابل الكنيسة أصغي إلى أصوات البلدة وأتأمل المارة حتى هبوط المساء.

عدنا إلى بيروت وأنا أهزأ سرّاً من إعجاب مأمور النفوس بي. صرت رجلاً، قال، اكتملت أوصافي، حزت إجازة في الآداب من دون أن أبذل جهداً خاصاً فقد خزّنت كجمل الصحراء الكثير من المعارف في حدبتي من سنوات المدرسة ومطالعاتي. وكنت ألجأ في كتابة المواضيع الأدبية أثناء الامتحانات إلى الإيحاء للمصحح بأنني أعرف حول المسألة المطروحة أكثر مما أفصحت عنه. كانت هذه الحيلة الأسلوبية تنجح دائماً.

أورثتني عمتي مالها وفوائد مالها، مال أزواجها وعشّاقها وجائزة اليانصيب الكولومبي، مليون بيزوس آنذاك، التي أخفت الفوز بها عن أي كان سواي. أطلقت شاربي وعاشرت نساء بين حين وآخر، صداقات عابرة لم أعثر فيها سوى على أجساد ثائرة ونفوس مسطّحة. التقيت مجدداً بالشقيقة التوأم داخل حافلة للنقل العام مكتظة بالركاب، تبادلنا التحية من بعد. بدت الفتاة كأنها فقدت نضارتها، نظراتها

حائرة، وردة حمراء لا تتفتح إلا بالتناغم مع أختها. ربما صرت رجلاً كما قال صديق والدي لكن الذئب المتوحّد داخلي لم يكن ظاهراً للعيان.

نزحنا غرباً داخل العاصمة إلى بيت اخترته لأن والدي كان منشغلاً يداوم في عمله ستة أيام في الأسبوع، يتهندم كل صباح طويلاً، يحجز المقعدين الأماميين إلى جانب السائق في سيارة الأجرة ويمضي إلى مشغله. لا يعود إلا في المساء. وفي أيام الآحاد، يرافق أمّي في نزهة إلى الروشة، يجلسان عند الغروب في أحد المقاهي يشربان عصير البرتقال وتنتظر أمّي سرّاً رؤية أحد الذين ضاقت بهم السبل يرمي نفسه منتحراً من أعلى الصخرة.

اخترت البيت الجديد مع تحوّلي إلى ثريّ العائلة. طابق واحد مستقل مع درج صغير يؤدي إليه من جهة شارع المكحول، محاطاً بحديقة صغيرة تنمو فيها شجرة أكيدنيا وأخرى من التين الأبيض مع نباتات الصبّار. سقوفه عالية ومرسومة، رحب مضيء ومشغول بدقّة، مصنّف كمبنى تراثي ما ضاعف بدل إيجاره. بيت من النوع الذي يخيّل إليك أنه يحفظ أصوات وأشباح من سكنوا فيه على مرّ السنوات. أخذت العائلة التي غادرته مقتنياتها وتركت وراءها آلة بيانو ثمينة من ماركة "ياماها" رفض أصحابها تحميلها يوم أحضروا شاحنة لنقل أثاثهم. صاحب البيت لم يمتدح هندسة منزله وبدا غير مهتم بالترويج لفرادته وسط أبنية الباطون المتعددة الطبقات، أخبرني أن شاغليه السابقين لم يرغبوا في نقل البيانو معهم لأنه يذكرهم بابنهم الشاب العازف الذي قتل في حادث سير هو وعروسه بعد أسبوع على زواجهما. ذهبوا إلى مكان آخر للأسباب نفسها التي دفعت جارتنا الأرمنية إلى المغادرة. كان هناك شيء ما يجري في المدينة لا تكتبه

الصحف ولا يتداول به الناس عالياً ولا نريد، والدي وأنا، أخذه في الحسبان لتدبير أمور حياتنا.

أضفت إلى البيانو لوحة التيناوي. كنت قد تركت جدار الردهة الرئيسية فارغاً لأشهر حتى تدبّرت رحلة إلى أحد أحياء دمشق الفقيرة، كنت مقتنعاً أن الفنّ الشعبي جميل لأنه شعبي. دخلت المحترف الذي توفّي صاحبه فلم أساوم طويلاً وعدت منه بلوحة لعنترة وخلفه عبلة على صهوة حصان ذنبه أسود كبير مثل شاربَي الفارس لم تتسع له مساحة اللوحة. أضاف الرسام القسم الناقص من الذنب في أعلى الرسمة وكان "صاحب ذمّة" لا يغشّ الزبائن كما قال عنه بائع رسومه ووارثها، مضيفاً أنه لم يعرف القراءة والكتابة. علّقتُ اللوحة المزركشة بألف لون والمزيّنة ببيتين من معلّقة عنترة الشهيرة في الصالون الذي بقي البيانو يحتل قسماً منه. هكذا ما إن اكتمل تصوّري لبيتنا الجديد الذي خصصنا فيه غرفة مقفلة لمقتنيات عمتي، حتى سمعنا أولى رشقات الرصاص في سماء العاصمة. لم ننتبه، أبي وأنا، إلى ما يحدث حولنا، إذ كنّا مأخوذين بهموم أخرى بعيدة عن الأشغال التي كنا نلوذ بها في الظاهر. كان لكل منّا قطبته المخفية. حياتان.

والدي كان مغرماً والغرام في سنّه يأتي قويّاً. لم يعرف أن الحرب التي بدأت تتلعثم حولنا كانت نوعاً من عقار مثير للشهوة الجنسية. تجاوز منتصف الخمسينات من عمره، تزوج باكراً وها هو يعوّض دفعة واحدة ما فاته من وفائه لامرأة لم تعر أنوثتها عناية تذكر. نظّم مغامرته البيروتية بالكتمان وبعناية الحرفي الماهر الصبور على التفاصيل حتى فضحه الهاتف، الآلة السوداء القديمة من ماركة "أريكسون" التي تدقّ كالجرس فتوقظ النائمين. كانت عشيقة والدي تشتاق إليه ليلاً عندما يكون في جوار أمّي فتتصل بالبيت. الأرجح أنه طلب منها التوقف

عن تعريضهما للفضيحة لكن ما إن يحلّ الظلام، حتى تضطرم حاجتها إليه فتحاول سماع صوته. يرنّ الهاتف فتحاول أمّي إيقاظه وهو يدّعي النوم العميق تهرّباً. تخرج إلى الصالون وما إن ترفع السماعة، حتى يُقفل الخطّ من الجانب الآخر. عرفتُ كم يشبه صوتي صوت والدي لما وصلت إلى الهاتف قبل أمّي في مساء عدت فيه باكراً إلى البيت فسمعت تأوهات امرأة تناديني باسم والدي فاعتقدت أنها تتصل برقم خطأ لكنها أكملت عتابها لأنّني أتركها لحالها مع ذاك ''البغل''؛ افترضت أنها كانت تشير إلى زوجها. يبدو أن والدي عجز عن السيطرة عليها فصار ينزع فيشة الهاتف قبل أن يخلد إلى النوم وقد اكتشفت الأمر لأنه نسي مرة إعادة وصل الخطّ في الصباح.

بدأت بعد تخرجي في الجامعة أعطي دروساً في ثانوية ''ابن خلدون'' الرسمية للبنين، زبائنها من أبناء أصحاب محلات السمانة أو المجنّدين في صفوف قوى الأمن الداخلي، محدودي الدخل أو فقراء. أصل في الصباحات الباردة لأقف حائراً أمام مراهقين لا يعرفون من الفرنسية إلّا عبارات مبعثرة وقد بدأت أحداث العنف المتلاحقة وبعض شعاراتها الجاهزة كمحاربة الاستعمار والتصدي للمؤامرة المحاكة على الوطن تعطي هؤلاء التلامذة الأرجحية في ميزان القوى بينهم وبين راسين ولافونتين. كان شرْحُ مشهد من مسرحية يعبّر فيها أورست عن حبّه المستحيل مناسبة للتأكد من أن مهمتي أيضاً شبه مستحيلة. لن يفقهوا اللغة ولن تطاولهم في شيء مأساة البطل الإغريقي الملعون من الآلهة. فقر مفرداتهم وبساطة صياغاتهم في لغة الأعداء هذه كانا يجعلانهم أشبه بالأطفال عندما يتكلمون بها، فعل وفاعل ومفعول به في أفضل الحالات.

حرصت من اليوم الأول على ألا أتوجه إليهم بغير الفرنسية فاعتقدوا أنني لا أعرف لغة أخرى أو أنني غريب عن بلدهم، يساعدهم في هذا الاعتقاد عيناي الملوّنتان وبشرتي الفاتحة. لكن يوم انفعلت جرّاء بلادة تلميذ حاول التذاكي خلال قراءة مثل لافونتين ''الحمار المحمل بالإسفنج والحمار المحمل بالملح''، نهضت عن كرسيّ الأستاذ وتوجهت إليه بالفرنسية قائلاً إنه لا شك يشبه الحمار المحمّل إسفنجاً. أكملت بالقول خطابة وبعربية لا تشوبها شائبة:

لكل داء دواء يستطبّ به إلّا الحماقة أعيت من يداويها
لم يصدّق رفاقه آذانهم وصفقوا لي فرحاً فتصالحنا.

كان هذا انشغالي العلني، ست عشرة ساعة في الأسبوع، دوام يتيح لي الانصراف إلى ما كنت أكثر اقتناعاً به بعد أن حوّلت بيتنا مركزاً لاجتماعات ''منظمة التروتسكيين العرب'' بكامل عديدها: خمسةِ رجال وفتاتين. صديقي المشّاء الذي لم تكتب له النجاة أعطاهم اسمي مع تنويه عالٍ بمواهبي الثورية التي لم أهتدِ إليها إلّا إذا كانت اللهم افتقاري إلى الحذر أمام التحديات وتطوّعي للأدوار الصعبة. راقبوا سلوكي جيداً، سألوا عني، اجتمعوا بي وقررنا عقد اللقاءات عندنا.

''بيتك لا يثير الشبهات''، قالوا من دون مزيد من التفسير. لم يدخلوا البيت في المرة الأولى معاً لأسباب أمنية، ألقوا نظرة استغراب على لوحة التيناوي الكبيرة في صدر الدار، وبدأنا بعدها في غرفتي نقاشاً مصيرياً لمواجهة الحياة التي تصنعها لنا النخبة المالية من دون استشارتنا.

وفي يوم، اختفى الوعاء الصيني الواقف على طاولة في الصالون وكانت أمّي تضع فيه أي زهور تصل إلى يديها، لم يجد والدي من يتهمه سوى ''التروتسكيين

العرب''. أسماهم ''أصحابك الذين يستيقظون ليلاً وينامون نهاراً''. وكذلك فعل لمّا فتّشَت أمّي في خزانة ثيابها عن معطف شتوي لها من الفرو الأسود كانت نادراً ما كانت ترتديه، أرادت حضور قداس الأحد والطقس بارد فلم تجده. وإذ دافعتُ عن أصدقائي بالقول إنهم أصحاب أخلاق عالية وفي اللحظة التي تساءلَت فيها من يكون هذا السارق تأكدت ظنوني أن الفاعل هو والدي، يبعد الشبهات عنه باتهام رفاقي ويقدم الهدايا إلى حبيبته.

كانت المدينة تهتز من وقع انفجارات وهجمات مسلّحة، وكنا نحن حفنة الثوّار كالمتجمعين تحت مظلّة تقينا المطر، نعتقد أن الطقس صاحٍ. لم نكن نعير ما يجري حولنا اهتماماً، ننظر إليه كحدث عابر خارج عن الصيرورة الطبيعية للنزاع الاجتماعي الذي نجزم بحتمية وقوعه.

''إنها ظاهرة عارضة، أبيفانومان''، أشار أحد الرفاق مرة إلى المواجهات الطائفية التي توقع القتلى يومياً. الفقراء من الطرفين هم وقود هذه الحرب: القاتلون والمقتولون. كرر في مرافعته حول التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية عبارة ''أبيفانومان'' التي يفترض بها إذا لُفظت كما يجب بلغتها الألمانية الأصلية أن تجعلنا نطمئنّ إلى صواب خياراتنا الثورية وديمومتها. كان لنا أعداؤنا الخاصون وأسلحتنا الخاصة التي خبأتها في بيتنا، ثلاث بنادق رشاشة كلاشنيكوف ومسدسان بلجيكيان وصندوقان من القنابل اليدوية XF1 الفرنسية الصنع، وعدد كبير من أصابع الديناميت لم أنجح في تحديد مكان تصنيعها. إنها أممية السلاح تحضيراً لإطلاق أممية النضال العزيزة على قلب ملهمنا الذي قتل غيلة في مكسيكو بفأس لتكسير الجليد. أدخلنا الأسلحة قبيل الفجر عندما يكون والداي، في عزّ نومهما، ووضعناها تحت السرير في غرفة عمتي حيث صففت لها أغراضها

تماماً كما كانت ترتبها. مرآتها ضمن إطار على شكل قلب فوق الطاولة وعليها عدّة جمالها الجاهزة للاستعمال ومخداتها السميكة البيضاء المطرّزة فوق سريرها إذ كانت تنام شبه جالسة وقد اهتدت إلى تلك الوضعية بعد أرق شبه دائم. كنت أحمل وحدي مفتاح هذه الغرفة، وفي اجتماعات الليل، لم تكن فرقتنا شبه العسكرية تميل إلى الإطالة الفكرية والجدل. ما جمع عناصرها كانت الرغبة في العمل المباشر أي في مهمات تبدأ بكتابة الشعارات على جدار وزارة الداخلية الخلفي: ''القمع لن يزيدنا إلّا صلابة''، مروراً بإتلاف كتب آدم سميث ودايفيد ريكاردو أينما وجدناها في المكتبات العامة أو التجارية، وصولاً إلى توزيع مواد غذائية على فقراء حيّ النبعة، وتحريض النساء على أزواجهنّ وتعليمهنّ القراءة والكتابة. لكن مشروعنا الرئيسي الذي كنا نتهامس به يدور حول الثأر لرفيقنا الذي سمّينا مجموعتنا على اسمه.

بعد نقاشات طويلة حول اختيار الهدف والوسيلة فعلناها أخيراً. راقبت إحدى الرفيقتين على مدى أيام خروج الرجل من البيت وعودته إليه، وجهّز رفيق آخر رزمة الديناميت مع ساعة التوقيت. انتعلتُ حذاء رياضياً وتسللتُ إلى المرأب ليلاً ودسست الرزمة تحت ''الجاغوار'' وانتظرنا، كلٌّ في بيته. أصيب سائق مدير المصرف برضوض جراء الانفجار الذي حدث عندما كان يركن السيارة بعدما ترجّل منها صاحبها. خرج السائق من المستشفى في اليوم نفسه، ولم تعد ''الجاغوار'' صالحة للسير، وهذا كان الضرر المؤكد الوحيد، فيما توالت تصريحات الاستنكار. الرجل مقرّب من أهل الحلّ والربط وهو من كبار داعمي ''دار الأيتام''، ونائب رئيس تجمع العائلات البيروتية وليس له أعداء وعرفنا أيضاً أنه كان متقدماً في السنّ وعازباً. ''تزوّج المصرف''، كما قيل فيه فرُميَت

المسؤولية على الطرف الآخر من المدينة: يحاولون إضعاف الشارع الوطني بضرب فعالياته.

أقلعنا من جهتنا عن إصدار بيان بالعملية. لم نحسن التوقيت ولا تحضير المتفجرات فكانت ضربتنا أشبه بضربة سيف في الماء.

بعد ذلك، نفّذ ''التروتسكيون العرب'' مهمات أخرى. لم أعرف من أي طاقة في نفوسهم أو أي مأساة في طفولتهم كانوا يستمدون القدرة على مثابرة لا متناهية. ساعدوا بعض النساء على الإجهاض، وافتتحوا مطعماً يأكل فيه الزبائن حتى يشبعوا ويدفعوا ما هم قادرون على دفعه، وتجسسوا بنجاح على والدي.

طلبت منهم مساعدتي، ولما عرفوا السبب، اعترض بعضهم، فهم لا يدينون الخيانة الزوجية بل يرفضون مؤسسة الزواج. مع ذلك، وافق اثنان على مساعدتي كصديقين لا كرفيقين. لم يكن والدي يعرفهما فالاجتماعات تنعقد في بيتنا دائماً بعد منتصف الليل. استقلّا سيارة التاكسي التي جلس فيها وحده في المقعد الأمامي، وأخبراني أنه كان طوال الطريق يسأل السائق عن مدخوله وعدد أولاده ويحرّضه على الثورة، وأن صوته يشبه صوتي على نحو مذهل وكادا ينفجران من الضحك أول ما سمعاه يتكلم. انتظراه النهار بطوله حتى خروجه من معمل الأحذية وجلسا إلى طاولة مجاورة في المطعم حيث كان متواعداً مع صديقته، شقراء طويلة القامة، ربما تكون جميلة لكنها تضع نظارات سوداء تحجب وجهها. سمعاها تطالبه بعقد اللؤلؤ الذي ما زال يعدها به من شهور. اتّهمته بأنه يكذب عليها ويستغلّها كما راحت تشكو من سلوك زوجها وتقتيره على البيت وتدّعي أن الرجال متشابهون، جميعهم أنانيون. خلص الرفيقان إلى القول إنّ والدي لا يعيش قصة غرام بل يتعرّض إلى عملية ابتزاز واضحة. وزاد أحد الرفيقين أن السهولة

التي يلتقي بها والدي مع صديقته في مكان عام ولا يظهر على المرأة أي حرج تجعله يعتقد أن زوج الشقراء موافق على فعلة قرينته، لا بل يشجعها عليها.

قبل أن أواجه والدي بالحقائق، فتشت عن عقد اللؤلؤ في غرفة عمتي فلم أجده، وتذكرت أنني راقبت تابوتها حتى حمله من الكنيسة إلى المقبرة خشية أن يفتحه أحد، لكنني لم أرافقهم إلى هناك. قصدت الكاهن السرياني في منطقة سكننا السابقة، فقيل لي أنه غادر ويحضر الأحد فقط ليقدّس أمام رهط صغير من المؤمنين غالبيتهم من العجائز. أخبرني عند باب الكنيسة حيث انتظرته أن والدي الذي رافق الحفّارين والكاهن إلى المقبرة طلب فتح التابوت ليلقي نظرة أخيرة على شقيقته فرأينا العقد. "فوجئنا"، قال الكاهن، "اعتقدنا أنكم نسيتم نزعه من عنقها".

كنا، أنا ووالدي، نخرج كل يوم إلى المدينة وأمّي تجلس وحدها في الصالون، تقرأ قليلاً في سيرة البطريرك آرميا العمشيتي ورواية **شجرة الدرّ** لجرجي زيدان. وكانت قد بدأت تمتمة الصلوات والمسبحة في يدها، مسبحة أهدتها إياها عمتي يوم سكنت معنا وقالت إنها جاءت بها من كنيسة يسوع الملك في ريو دي جانيرو وقد كانت تضعها أمّي دائماً تحت مخدتها. جالستُها في أحد الصباحات فأعدّت لي القهوة المرّة التي كانت تسمح لي بتدخين السجائر معها وأفرغت ما في نفسها، عوّضت عن سكوتها الطويل في هذا البيت الذي لم تجد لها في جواره صديقات، سيدات الحيّ متعلّمات متكبرات لم تجد سبيلاً للكلام معهن فتمضي النهار وحدها.

أجهشت بالبكاء من دون مناسبة وقالت إن حياتها سوداء، لم تعد تحبّنا ولم يعد لديها قابلية لتحضير الأكل لنا، كانت تتكلم بالجمع، عنا نحن الاثنين، والدي وأنا، بينما كان واضحاً أنها تقصد بكلامها زوجها وحده. تعرف كل شيء عنه منذ

البداية: الهاتف الليلي، والغياب الطويل الذي يتخطّى دوامه في العمل نهاراً، وحرصه على الاستحمام وتغيير قميصه وسرواله الداخليين كل صباح، إضافة إلى روائح نسائية يأتي بها عند كل مغيب مع ثيابه. شعرت أنه استيقظ أبكر من المعتاد ذات يوم، أي في ساعة الفجر الأولى، رأته يحمل آنية الزهر الصينية خلسة ويفرّ بها كالسارق. سكتت لأنها لو فضحت خيانته كان عليها ترك المنزل وهي ليس لديها مكان تلجأ إليه. وعدتها بأنني سأتحدث إليه فطلبت من رفاقي خدمة أخيرة صعب عليّ تبريرها، تتعارض أيضاً مع مبادئهم. صداقتنا كانت الأقوى. انتظر الرفيقان خروج والدي من معمل الأحذية، شهر عليه أحدهما مسدساً كان أفرغه من الرصاص، دسّه في بطنه وطلبا منه الصعود إلى سيارتهما. قاداه إلى مكان مقفر عند شاطئ البحر وراحا يتهمانه بالتجسس للأعداء، يعطيهم إحداثيات المواقع المهمة كي يقصفوها بالمدفعية. هو ينكر بشدة ويسألهم من هم الأعداء وهما يتغامزان ويمتنعان عن الضحك. كانا يرغبان في الضحك بسبب ارتباكه وصوته الذي يذكرهما بي. وفي النهاية، طلبا منه المغادرة إلى المنطقة الأخرى حيث ينتمي وإلا سيتعرّض للأذى هو وعائلته. أضافا أنهما يعرفان ابنه الوحيد جيداً، الشاب الأشقر الذي يدرّس الفرنسية في ثانوية "ابن خلدون"، وأنهما قادران على أذيّته إن لم يبادر إلى الانصياع لما يطلبانه منه. أعطياه مهلة أسبوعين كي ينزح وهو يرد بأنه لا يعرف المنطقة الشرقية ولا يعرف أحداً فيها وبأنه قادم من بلدة في الشمال. "أعذر من أنذر"، قالوا له قبل أن يحرروه.

انطلت عليه الحيلة وعاد إلى البيت صامتاً لا يشاطر أحداً "سرّه"، ولو أن سلوكه بدأ يتغيّر، يعود باكراً من المشغل، يلاطف أمي وينظر إليّ بعين الريبة.

بعد أقل من أسبوع، جاء من يقرر عنه وعنّا جميعاً. في ليلة قبيل الفجر، أيقظنا طرق قوي على الباب، جيران بلباس النوم أنذرونا بأن النار مندلعة في غرفة البيت الشمالية، غرفة عمتي. أخرجت والديّ إلى الشارع وعدت إلى الغرفة المشتعلة، فتحت الباب فخلقت من دون أن أدري مجرى هوائياً ضاعف من زخم النار. تراجعت إلى الصالون، أنزلت لوحة رسم عنتر وعبلة وجررت صندوقاً من كتبي وخرجت من البيت. سندت لوحة التيناوي على شجرة الرصيف تلفت أنظار من اجتمعوا على الحريق، لأعود وآتي بصندوق الكتب الآخر وأصرخ بالمتجمهرين أمام البيت أن يبتعدوا كثيراً لأنّني خشيت أن تصل النار إلى الأسلحة تحت سرير عمتي. هكذا صار، بعد وقت قصير بدأت تسمع انفجارات القنابل اليدوية وأصابع الديناميت فتصاعدت النار والدخان بكثافة أرعبت الحيّ وانفتحت فجوة كبيرة في جدار البيت الخارجي وازدحم الشارع بالناس.

نزل والداي في فندق قريب، والتجأت إلى أحد أصدقاء النضال لأبيت عنده ثم رافقت والدي في الصباح إلى المخفر حيث قيل لنا أن الحريق متعمّد. سألونا إن كنا نتهم أحداً فأخبرهم والدي كيف تعرض للاختطاف والتهديد، كان رجال الأمن يدخّنون السجائر ويدوّنون الشكاوى فقط في سجل كبير ولا يقدرون على المكافحة أو الاقتصاص من أحد. لكن في عودتنا لتفقّد ما بقي لنا التقينا مهندساً من جمعية المحافظة على البيوت القديمة حضر يعاين الحادثة. قال إنه يعتقد أن هناك من أراد تدمير البيت التراثي القديم كي تقوم مكانه بناية بطبقات عدة، ناطحة سحاب صغيرة تدرّ الكثير على أصحاب الأرض والبيت، وهذا غالباً ما يحدث في العاصمة في المدة الأخيرة. حضر صاحب البيت أيضاً ولم تبدُ عليه الفجيعة بل يمكنني الجزم أنه كان راضياً عما حدث. أما والدي، فكان مقتنعاً أن اللذين هدداه

عند شاطئ البحر هم من أحرقا البيت، يسترجع المشهد ولا يصدق أن هذين الشابين قادران على الإيذاء، يشعر أنه يعرفهما، أنه رآهما من قبل، نظر إليّ مطوّلاً كأنه بدأ يقترب من فكّ اللغز وقال: ”يعرفانك ويعرفان أين تدرّس“.

خفت انفضاح أمرنا وتركته على اعتقاده، فازداد شعوره بأننا نسكن في منطقة معادية وصار يقول إننا خرجنا من بلدتنا هرباً من الذي عدنا وصادفناه في العاصمة.

تفحّمت غرفة عمتي، انهار جزء من البيت، لم يعد قابلاً للسكن، لم يبقَ أمامنا سوى النزوح، لحق بنا ”الأبيفانومان“ الذي استخففنا به وقُذفنا في ترحال جديد. زال كل أثر مادي لعمتي، لم أنجح في الوقوع إلا على القليل يخصّها؛ أكلت النار كل ما احتفظت به من شواهد على أسفارها وقصص غرامها، لم يبقَ سوى عقد اللؤلؤ الذي تخيّلت أن الشقراء الطويلة القامة، عشيقة والدي، تتباهى به إذا ما دعيت إلى زفاف أو ختان. كان هذا أيضاً موت عمتي الأخير.

أشباحي الأليفة

استقبلونا كالناجين من هلاك مؤكد، شدّوا على أيادينا ورحبوا بعودتنا "بين أهلنا". رجل متقدّم في السنّ عرّف عن نفسه أنه مختار المحلّة وشابان متطوعان ونساء ساكنات في الجوار حضروا، لم نعرف من أين خرجوا فور وصولنا. كدت أصحح لهم أننا لسنا من العائدين لأننا لم نقم هنا يوماً بل نحن وافدون جدد نضيع في شوارعهم التي اكتشفت أنها تلتف حول بعضها كالمتاهة، كلعبة السلالم والأفاعي. لكنني لم أرغب في تنغيص فرحتهم بنا.

هم يضحكون سرّاً من لهجتنا الثقيلة ونحن نسخر من مزجهم كلمات فرنسية متفرقة مع كل ما يقولونه بالعربية. كانوا مقتنعين من دون أدنى إثبات أن من أحرق البيت بنا ونحن نيام في الشطر المقابل من العاصمة يريد قتلنا وتهجيرنا. يضيف أحدهم بأنهم هكذا فازوا بنا في الحرب المفتوحة بين البيروتَين. حملوا لنا الأكل وعرضوا علينا الملابس، دخلوا علينا وساعدونا في ترتيب الأثاث في شقة علمنا لاحقاً أن قاطنيها السابقين هاجروا هرباً من الحرب لكن في الاتجاه المعاكس. تفحصوا قطع الأثاث التي نجحنا في نقلها معنا بشاحنة واحدة، توقفوا متسائلين أمام لوحة عنتر وعبلة وقرأ أحد الشابين عالياً وبصعوبة بيتَي الشعر اللذين خُطّا على سرج الحصان لتزيينه:

جادَت له كفّي بعاجل طعنةٍ بمُثقَفٍ صدقِ الكعوب مقوّمِ

فشككتُ بالرمح الأصمّ ثيابَه ليس الكريمُ على القَنا بمحرّم

أخطأ الشاب في تحريك جميع كلمات المعلّقة، لم يفهم معنى الشعر لكنه اشتم فيه رائحة الفخر فقال إن العرب لا يحسنون سوى ادعاء البطولات الزائفة من يوم خلقهم الله. ارتاح مستقبلونا لأسمائنا المتناقلة من أسماء القديسين وشهداء الكنيسة الأوائل كما استأنسوا باسم عائلتنا، عائلة أبي، المعروفة برجال دين علماء وأتقياء عاشوا في القرون الماضية ومنهم راهب كان يغسل شاله ثم يرميه على شعاع الشمس كي يجفّ. لم تكن لهفتهم علينا تتناسب مع العلامات المرتسمة على وجوهنا، فوحدها أمي كانت تُظهر بعض الرضى عما آلت إليه أحوالنا، تبتسم لهم بتهذيب وتشكر عنايتهم. والدي المتجهّم الوجه كان كالمحكوم بالأشغال الشاقة يضخّم خسارته عمله في الجانب الآخر من المدينة مدّعياً أنه سيصعب عليه في سنّه المتقدمة إيجاد من يشغّله هنا. من جهتي، كنت قد خططت لمرافقة أهلي إلى مقرّهم الجديد، تثبيتهم هناك والعودة سريعاً إلى مدرستي ورفاقي إذ إن مهماتنا النضالية لم تنتهِ بعد، وهي لن تنتهي. معنوياتنا القتالية لا تزال عالية.

حاولت العودة بعد أيام، أنزلني سائق سيارة أجرة أمام المتحف الوطني وقال إنه لم يبقَ عليّ سوى السير على طول جادة "عبد الله اليافي" المليئة بالعوائق والستائر الترابية. عشرات الأشخاص، وجوههم متعبة، كانوا يحاولون اجتياز الخطّ الفاصل، يجرّون معهم الأولاد وحقائب السفر. غالبيتهم كانوا يقصدون المطار في الجهة الأخرى، يهاجرون تاركين مدينة صار العيش فيها صعباً. كانت الجادة مقفلة في آخرها بالكتل الإسمنتية في الاتجاهين، تُرك بينها ممر واحد للمشاة كُتب فوقه على قطعة خشب: "يفتح المعبر بين الثامنة صباحاً والرابعة بعد الظهر"، تماماً كدوام المدارس والمكاتب. يحرسه مسلّحون يطلبون الهويات ويسألون القادمين عن وجهتهم وأسباب عبورهم. كان لكل منّا قصة ولم يكن

المسلحون مستعجلين. استمعت بتقطّع لزوجين كانا يتقدمانني مباشرة، ذكرا ابنهما المريض، كانا عائدين من زيارة إليه في مستشفى الأمراض الصدرية. راحت الزوجة تبكي عالياً والمسلحون يلاطفونها. جاء دوري، كانوا على ما يبدو يتبعون إيقاعاً يكونون فيه متعاطفين مرة وعدائيين في المرة التي تليها، فكان نصيبي وجوهاً مقطّبة وأسئلة خشنة. نظروا إلى هويتي فازدادوا تجهّماً.

"إلى أين؟" سألني أحدهم بحدّة.

"إلى شارع المكحول"، لم يعجبهم جوابي المقتضب أو اعتقدوا أنني أسخر منهم، فهم لم يسمعوا من قبل بشارع المكحول. لو كان صديقي المشّاء يرافقني، لكان عرف أصلهم وفصلهم من ثيابهم ولهجتهم، ولكان ربّما جزم أنهم ينتمون إلى من يسميهم البروليتاريا الرثّة، طارئين جدداً على المدينة وسعيدين بخرابها لأنها الوسيلة الوحيدة للحصول فيها على مغنم ما. أعادوا إليّ هويتي وأمروني بالرجوع من حيث أتيت. تلك كانت فرصتي، أوضحت لهم أنّ بيتي هناك وأنّ لديّ فيه بيانو ثميناً أريد استرجاعه وأنوي وضع الورود على قبر عمّتي ولن أتركها وحدها في مدفن السريان في الشطر الآخر من العاصمة. لم تشفع لي لهجتي العاطفية، أمروني وهم يشيرون باتجاه الشرق: "مكانك هناك، ارجع".

قرؤوا ذلك في بطاقة هويتي وافترضوه من اسمي الواضح الانتساب الطائفي. ارتفعت أصواتهم وهم لا يفهمون كيف أعصي أوامرهم لكنني تجاهلت مطلبهم وتقدمت صوب المعبر، في نفسي توق دائم للمجابهة، لا أحمي ظهري وأهجم. وقف اثنان في طريقي فدفعتهما متسلحاً بحقي في العبور، فرفع أحدهما بندقيته الأوتوماتيكية ولقّمها فلم أتزحزح من مكاني قيد أنملة. أكملت بالقول وأنا أنظر إلى الساعة في معصمي إن تلاميذي في الصف الثانوي الأول، الفرع الأدبي،

ينتظرونني في مدرسة ”ابن خلدون“. ضاقوا ذرعاً بي وبتفاصيلي التي لا تعني لهم شيئاً وذكري أمكنة غريبة عنهم فأطلق أحدهم النار أرضاً بعد أن حذّرني ولم أمتثل. رشقاً من طلقات عدة أصابتني إحداها في رجلي. هرب العابرون في كل اتجاه، ربط عناصر الميليشيا رجلي وهم يشتمونني وأنا متماسك لم أشعر بالوجع رغم تدفق الدم. وصلت سيارة الإسعاف وعادت بي من حيث أتيت. في الطريق إلى المستشفى، تملكني الوجع، منعت نفسي من الأنين حتى حقنوني بالمسكّن. وضعوا رجلي في الجصّ.

”يجب إبقاؤها محبوسة أربعين يوماً“، قال الطبيب. رفعتها في البيت على السرير حيث تمددت وحيث جاءت أمّي تقول لي إنها صارت تكتفي بالصلاة كي أبقى على قيد الحياة فقط لأن مجاورة المخاطر تسري في دمي. سألني والدي أن أروي له ما حدث معي بالتفصيل، أن أصف المعبر وأكرر عليه الأسئلة التي طرحها عليّ المسلّحون، فشككت في أنه يستكشف الوضع كي يحاول بدوره العبور إلى حيث لا يزال قلبه يناديه.

انغلق المكان عليّ. تبخّرت بيروت التي رسمها لي صديقي اليساري، المصنوعة من صخب الريفيين الوافدين إليها ونظافة مطارحها البرجوازية العريقة. هنا أصحاب المهن الصغيرة، وهناك الأرمن ومهاراتهم الصناعية، والواجهة البحرية بفنادقها، والحسناوات والجواسيس، والأسواق العثمانية، وشارع المقاهي، ودور السينما، والمثقفون، والحيّ السكني الهادئ الأشبه بالقرية وسط بيروت الذي نزلنا فيه، أنا وأبي وأمي. نزلنا فيه بعد خروجنا من الشطر الغربي، لأن مدينة صديقي الصاخبة باتت تختزل بشطرين فقط: المسلم والمسيحي. من حسن الحظّ أنه مات ولم يرَها.

فككت الجصّ عن رجلي وقمت للسير فوجدت نفسي أعجز عن التقدّم إن لم أحنِ جسمي إلى جهة اليمين فأشار عليّ الطبيب الاستعانةَ بالعصا. نفرت من الفكرة فطمأنني أنني سأحملها لشهرين أو ثلاثة لا أكثر. خرجت بها إلى الأرصفة أمشي متمهلاً، أزن خطواتي، فأعجبتني صورتي المنعكسة في واجهات المحلات الزجاجية، شبح عابر يوقظ فيّ ذكريات أدبية. صارت العصا تمنحني ثباتاً وتحكّماً ولم أخف منها على منزلتي عند النساء، لا بل بتّ مقتنعاً أن حملي إياها سيزيد من غموضي وجاذبيتي. وبدلاً من السعي إلى التخلّص منها والتمرّن على السير من دونها، اقتنيت مجموعة منها، نحو عشر من خشب الجوز أو البيلسان، حتى أنني وجدت عند بائع للأثريات مقبضاً على شكل رأس هرّ مذهّب باعني إياه بسعر مضاعف ما إن أشعرته بلهفتي. بعد أشهر استعدت خلالها عافيتي واستقامت عظامي، رفضت التخلّي عن العصا وبقيت أتكئ عليها بينما أسير وأنا لا أحتاجها، أنزل الأدراج مسرعاً وعندما أخرج إلى الشارع لأختلط بالمارة أستعيد مشيتي المتثاقلة لأصبح أديباً متأنّقاً، داندي جعل من المظاهر سبباً للعيش.

أعادتني العصا وأعادتني غربتي الجديدة إلى كتبي، تلك التي هجرتها بحثاً عن الحقيقة الثورية في مؤلفات لا ترضى بأقل من التاريخ والإنسان موضوعاً لها. فتحت صناديقي، أعدت اكتشافها وبعثرتها على المقاعد والطاولات، في غرفة نومي وفي الحمّام، اشتريت المزيد منها، أقرأ ولا أكمل ما بدأته، أفتح دروباً أعد نفسي بالرجوع إلى سلوكها لاحقاً. لم أعد أنهي كتاباً فتأكدت أنني لا أطيق النهايات، كل الصفحات الأخيرة حزينة. وفي كل مرة كنت أرتاد فيها صالة سينما منذ نزولنا إلى بيروت، كنت أقف وأخرج قبل نهاية الفيلم ما إن يبدو لي أن الأحداث على الشاشة قاربت من بلوغ خواتيمها. أرتاح للكتب التي لا بداية ولا

نهاية لها، أفتحها في أي صفحة كانت فتكون مقروءة مفهومة، قصصها تتوالى من دون مسار، هكذا أنهيت **العهد القديم** وأنا أنتقل عشوائياً من زوجة لوط إلى طوفان نوح وصولاً إلى إعادة بناء الهيكل في مقتطفات غير متتابعة.

كانت الكتب عشرتي الوحيدة في هذا الجانب الذي استقررنا فيه في شقة من ثلاث غرف نوم، واحدة لوالديّ، وواحدة أنام فيها مع كتبي وأحلامي المستعادة، وواحدة مقفلة على اسم عمتي وضعنا فيها بعض أحذيتها التي نجت من الحريق. في اليوم التالي لوصولنا، وربما بسبب الفتور في رد فعلنا، أو لأنهم سمعوا عنّا كلاماً سياسياً غير مطمئن كأن تكون لنا ميول مع الطرف الآخر، هو نفسه الذي طردنا، توقّف الجيران عن زيارتنا وتركونا نتدبّر أمورنا بأنفسنا.

لم تستقم أحوالنا، بقينا نشعر بهمّ أبي وسعيه الحثيث للعودة إلى مسرح خيانته الزوجية. لم نعرف إن كان نجح في العبور إلى هناك لكنه غاب يوماً عن البيت ولم يرجع إلّا في الصباح. مزاجه بقي متقلباً، يمازحنا في بعض الأيام فلا تبتسم أمّي، يلي ذلك حالات هبوط لا يشاركنا فيها الغداء. كنا نقرؤه ككتاب مفتوح، أنا وأمي.

أمّي، آه من أمّي، بعد تجاوزها الخمسين من عمرها تذكرت نفسها، استيقظت على الجزع الذي كانت تكتمه داخلها. حدث ذلك من دون إنذار. عدت من المدرسة لأشارك والديّ الغداء ظهر الإثنين الذي يلي أحد الشعانين. التحقت بثانوية "الراعي الصالح" القريبة، ضربت الباب بالعصا معلناً قدومي فلم أجد أمي. عادة لا تبارح البيت، كان الأكل موضوعاً على الطاولة بارداً، غداء لشخصين فقط، البازيلاء بالأرزّ واللحم مع سلطة الشمندر وشراب الجلّاب بالصنوبر والزبيب. لم تحسب لنفسها حساباً، لن تعود. وصل والدي فبدا الخوف

في عينيه، لم نعرف كيف نبحث عنها في المدينة فجلسنا صامتين حتى قُرع الباب. دخلَت برفقة امرأة حضرت مع من حضروا لاستقبالنا في اليوم الأول لنزوحنا من المنطقة الغربية. كانت المرأة تبتسم مرتبكة وأمي ترتدي ثياباً تدشّنها للمرة الأولى: فستاناً من المخمل الناعم الأزرق وعلى رأسها القبعة الوحيدة التي تملكها، قبعة تعلوها ريشة وتظهر على رأسها في صور عرسها. خبّأتها في خزانتها ونسيتها. وضعت الكحل على عينيها كما كانت توصيها دائماً عمتي وتشفع طلبها هذا بالقول إنها جميلة وأمي ترفض المديح. كان منظرها مضحكاً، دمعت عيناي فاقتربت أتابع حركة الشارع من النافذة كي لا تراني. رمت القبعة على الكنبة، جلست خائبة، نظراتها زائغة ثم سألتنا لماذا لم نتناول الغداء فلم نعرف كيف نجيبها.

انسحبت المرأة فلحقتُ بها عند مدخل البناية ناسياً عصاي جراء الانفعال. أخبرتني أنها وجدَت أمّي جالسة في حديقة اليسوعيين، تضحك وحدها وقد بدت تائهة، تقدمت منها فلم تعرفها ربما لأنها التقتها مرة واحدة فقط. جلست على المقعد إلى جانبها فأخبرتها أمّي كيف عانى أهلها من الجوع إبان الحرب الكبرى. كان جدّها يبيع شجرة الزيتون مقابل رغيفين أو ثلاثة من الخبز، طعام يوم واحد لأولاده. تزوجت بتدبير من والديها ولم تكن تريد أولاداً، وابنها الوحيد، أي أنا على ما أعتقد، حملت به عن طريق الخطأ.

قالت إنه لا يجدر بعائلتها إنجاب الأطفال. لم تخبرها عن السبب ولم تسألها حياء. همّت المرأة بمغادرة الحديقة فطلبت منها أمي مساعدتها في العودة إلى البيت. يضيع كثيرون في هذه الشوارع المتشابهة. رافقَتها إلى جوار البيت لكن أمي بقيت واقفة زائغة لم تتعرف إلى المكان فقادتها إلى الشقة. شكرت المرأة

ورجعت فوجدت أمّي بدّلت ثيابها وأخفت قبعتها وغسلت وجهها. مازحتها وهرّجت لها ونحن نتناول الغداء وطوينا الصفحة كأن شيئاً لم يكن. لم نأتِ بعدها على ذكر ما حدث.

استأنفنا حياتنا: والدي وجد عملاً لكنه لم يكن راضياً، يدير متجراً لبيع الأحذية الفاخرة المستوردة، كان غير راضٍ على الدوام، وأنا استقرّت حالتي مجدداً. لم يكن التدريس متعباً فالتلامذة في ''الراعي الصالح'' أكثر ألفة مع الفرنسية. هكذا انتظمت أيامي على هامش الدنيا، مدرّس صغير، فئة ثالثة، رقمي المالي 67/280، موعود بدرجة إضافية كل سنتين، يحظى بإعجاب زملائه الذين لا يجدون غضاضة في طلب معونته إذا واجهوا صعوبة لغوية. تتقرّب مني المعلمات اللواتي لا أهتم لجمالهنّ وأطباعهنّ، وتتفاداني مدرّسة الفلسفة في الصفوف النهائية التي قيل أنها متزوجة ولم يرَ أحد زوجها. تحمل دائماً كتاباً تعزل نفسها مع صفحاته عن مسايرة الزملاء. كنا نلتقي أيام الأربعاء قبل الظهر من دون موعد في قاعة الأساتذة، نحن الاثنين وحدنا، نصحح الفروض أو نحضّر الدروس. جميلة وصامتة، وطوال ساعة الفراغ هذه كنت أشعر بوهج حضورها. كانت أحد أحلام يقظتي أن أذهب على متن سيارة رباعية الدفع إلى غابة أمازونية بعيدة مع رفيقة خارقة الجمال حائزة شهادة دكتوراه حول أفكار هيغل وتحمل آلة تصوير يابانية حديثة. دعوتها إلى المقهى فابتسمت ابتسامة غامضة وقالت: ''ربما في ما بعد، في يوم من الأيام''.

آكل، أشرب، أقر، أنام، تحدث الأشياء في غفلة عنّي، أصبحت كما قال الشاعر: ''لا شمسي ولا قمري''. عاودتني الكآبة التي كانت قد هجرتني لسنوات خضت خلالها حروباً من كل نوع. حتى القذائف التي كانت تنفجر أحياناً في الجوار لم

أعد أسأل من يرسلها. انفصلت، وضعفت شهيتي للأكل وبدأ يصيبني دوار خفيف ومثابر، وصرت أمشي وحيداً هائماً في الشوارع. أسلك جادة "الاستقلال" لأصعد في شارع "الثلاثة أقمار" وألتف نزولاً في شارع "الجنرال غورو". لا أجلس في مقهى ولا أتوقف، فلست وحدي في مسيرتي هذه. أمشي على رأس موكب يمكن التعرّف فيه إلى الأمير ميشكين ونيكولاي ستافروغين وسميردياكوف وغيرهم من المصابين بالصرع أو بداء السلّ المميت. يحملون هوس اللعب، يقامرون بكل ما يملكون من نقود، يربحون فلا يتوقفون حتى يخسروا كل فلس، أو يُضمرون رغبة ثابتة في الانتحار. ثلّة من شخصيات قيل فيهم أن حاجتهم النفسية البدائية هي ضرورة العذاب، لا يرضون المساومة قبل وصولهم إلى حتفهم. وفي أيام أخرى، يتعزز الموكب إذ تنضمّ إلى تلك النفوس السلافية المتهاوية مجموعة من أهل بلدتي التي خرجنا منها ولم نعد، أقاربي من الذين لهم صلة من الأب أو الأم مع آل الصبّاغ. أستاذ الرياضيات الذي حطّم في ذلك اليوم مرايا بيته كأنه يحطّم صورته فيها. المرأة الجميلة التي كانت في الأربعينات من عمرها تستحم في بركة الماء التي تُسقى منها البساتين، تفلت شعرها الأسود الطويل وتسير عارية في ضوء القمر، تنادي على الرجال فيفرّون مذعورين من أمامها. الشاب الذي كان يمضي يومه بين المدافن يكلّم الموتى بأسمائهم ويذكّرهم ساخراً بزلّاتهم في سنوات حياتهم. رافقَتنا أيضاً السيدتان التوأمان من قرية الصيف، وسار معنا صديقي شهيد "منظمة التروتسكيين العرب" وكامل أعضاء الخليّة الأممية، كما التحقت بنا أمّي آخر الموكب. شخصيات أكاد أسمع أصواتها الآتية من أزمنة متباعدة، تجتمع عليّ، تهمس في أذنيّ. أسرع الخطى، وألقي نظرة إلى الخلف، وأبدأ اللهاث والتعرّق وتتصاعد دقات قلبي حتى أصل إلى جوار البيت.

إلى أمّي مجدداً التي راحت تعاود الوقوف قبالة مخاوفها. فبعد مدة على خروجها الأول إلى الشوارع، ذهبت هذه المرة في رحلة بعيدة. وجدنا ثيابها مبعثرة على السرير كأنها لم تهتدِ بسهولة إلى ما ترتديه، واختفت. جلسنا واجمين لساعة من الزمن ثم خرج والدي من البيت من دون أن يخبرني عن وجهته. اعتقد أنه كان يشعر بالذنب، رجع في أول المساء على أمل أن تكون قد عادت. رنّ جرس الهاتف. إنه صديق أبي، مأمور النفوس، يبلغنا بلهجة متقطعة أن أمّي وصلت إلى عندهم لا يعرف بأي وسيلة وستمضي الليل في ضيافتهم وينصح والدي بالحضور في الغد لمرافقتها. قال فقط إنها ليست على ما يرام. أقلّتها سيارة أجرة إلى مسقط رأسنا، وتوجّهَت مباشرة إلى منزل أهلها المهجور في الحيّ القديم. تحوّل بعد وفاة والديها وهرب شقيقتها إلى هيكل من الحجر والباطون نمت داخله الأشواك والنباتات البريّة وتحوّل مرتعاً للهررة الشاردة. وقفت داخل ما بقي من الغرفة التي كانت تتقاسمها مع شقيقتها وصارت تردد بصوت عالٍ أغاني الطفولة التي تعلمتها في مدرسة الراهبات والتي تحكي عن حصان ابن الملك وضفائر الصبية الشقراء التي تنتظره تحت شجرة الصفصاف قرب مجرى الماء. سمع المارة صوتها، تجمعوا عند مدخل البيت فتابعت الغناء، تعرفوا إليها ونادوا على مأمور النفوس، أقرب الأصدقاء من زوجها.

وصلنا في اليوم التالي، كان والدي مربكاً لا يجد ما يفسّر به سلوك زوجته أمام أصدقائه. عدنا بها، جلستُ بقربها في مقعد السيارة الخلفي وضممتها إلى صدري طوال الرحلة. كانت تبكي بهدوء وتحكي لي بصوت هامس عن زوال الماضي، يذهب الناس وتندثر البيوت، تموت المشاعر والروائح، تسألني عن كيفية استرجاعها. لماذا لا يمكنها العودة إلى سنوات الحب المتبادل مع أبي، إلى

المدرسة، إلى حضن أهلها وإلى الطفولة حيث لم تكن تبالي بالموت، عندما لم تكن تدري بوجود الموت؟ أمي العاقلة السّكوت، الراضية بقسمتها، بدت امرأة جديدة لم أعرفها من قبل تستغيث بي. لم أتحمّل ضعفها، حاولت إسكاتها، كلماتها تضرب باب قلبي.

بعد أن هدأت وبدأنا نخطط للتناوب على حراستها، رحت أستكشف الأحياء المحيطة بنا بحثاً عن مقهى أرتاده. وجدته في ساحة صغيرة شبه مقفلة، وفي اليوم التالي، جلبت معي مفكرة ثمينة وقلم حبر سائل لعلّ نوعية الورق والحبر ترفع من أهمية الكلمات، وجلست إلى طاولة أرى منها الشارع المزدحم بالسيارات. في اليوم الأول، شربت القهوة "الاكسبريسو" ودخّنت السجائر. كانت جلسة افتتاحية في المكان الذي يطلّ على واجهة بناية حديثة العهد وعلى كشك لبيع الصحف وأوراق اليانصيب. لم أكتب كلمة بل اكتفيت بتأكيد عزمي على البدء بكتابة لم أتبيّن شكلها، بل كان ينتابني شعور بأنني مليء حتى الحافة بأشياء يمكنني قولها ويبقى عليّ أن أهتدي إلى صيغة لقولها. في يوم، ومن غير موعد، ولمرة واحدة ومن دون أن يحدث معي شيء يذكر، تدفقت الكلمات بغزارة لم أعد أعرف كيف أنظّمها، كما يتدفق الماء فجأة من نبع جاف أواسط أيار ما إن يطفح الخزان الصخري الذي يتغذى منه. عشرة أيام للخروج بصفحتين. في اليوم التالي على انفلات إلهامي، نضبتُ، وفيما ارتحت قليلاً من زحمة أشباحي الأليفة، عادت خالتي، خالتي التي فرّت مع رجل متزوّج وانقطعت أخبارها. ليس لديها أحد تلجأ إليه غيرنا.

عادت من ياموسوكرو بالطائرة إلى قبرص ومن هناك إلى لبنان بباخرة الركّاب، رحلة ذاقت فيها مع ابنها العذاب خصوصاً في البحر بين لارناكا

وجونية. لم يعرفها والدي لمّا دخلت من الباب. قصّت شعرها قصيراً وصبغته بلونين فاقعين وترتدي فستاناً مطبّعاً بالزهور. فعلت كل شيء كي تبدو صبية. حتى لهجتها تغيّرت في سنوات غيابها ولم تعد عربية صافية. دخل معها مراهقٌ أسود البشرة، أفريقيٌّ بامتياز، أشعث الشعر وسميك الشفتين، لا يفارق أمّه كأنه في أرض عدوّة، صامت لكن إذا أجاب عن سؤال يطرحه عليه الكبار، يردّ بالفرنسية. عدت من "الراعي الصالح" فوجدت حقائبها مكدسة عند مدخل الشقة وأمّي لا تشبع من تقبيلها ولو بدت متحفظة مع الصبي، لا تضمّه، تناديه عن مسافة. اجتمعنا نصغي إلى خالتي تخبرنا قصتها. تحكي على مسمع من ابنها، وهذا ما فاجئني، كيف التقت بزوجها في البلدة التي تنام مع غروب الشمس لأن الليل لا يكون فيها آمناً. رجل وسيم تصعب مقاومته وهي صغيرة لم تقبّل شاباً في حياتها. أيامه مع زوجته شجار لا يتوقف وصراخ لا يحتمل، فعرض على خالتي الهرب وقال إنه سيسافر وحده في كل حال إن لم ترافقه. جمع بعض المال وهي باعت أساورها وقلادتها الذهبية، طارا إلى التوغو، ومن بعدها إلى غانا فإلى أبيدجان حتى استقرّا وسط البلاد في ياموسوكرو. كان غرامهما جنونياً، عملت إلى جانبه في التجارة وعاشوا ثورات القبائل وحروب الماس ثم رُزقا بصبيّ.

قاطعتها بالسؤال إن كانا تزوّجا فقالت إنّ كاهناً كاثوليكياً أسود عقد قرانهما من دون أن يسألهما شيئاً عن ماضيهما.

يوم حملَت كان المستشفى في ياموسوكرو قد تجهز حديثاً بآلة الرنين المغناطيسي وقد أجرت الفحص، وقيل لها أنها حامل بصبيّ فطار زوجها من الفرح، وكان الجنين يرفس كثيراً فكان يضع أذنه على بطنها ليسمع ضرباته. سهر عليها، رافقها إلى المستشفى يوم الولادة، ولما حملوا لها الصبي إلى الغرفة،

رآه أسودَ؛ صورة الرنين المغناطيسي لا تفيد حول لون الجنين. كاد يُغمى عليه لكنه انتصب وراح يصيح ويشتم في ممر المستشفى وفي وجه الطبيب، يتهمه أنه بدّل له ابنه فقاده الطبيب إلى الحضانة حيث يوضع حديثو الولادة وقال له: ''انظر لا يوجد بينهم طفلٌ أبيضُ واحدٌ''.

لم يرجع الرجل إلى غرفة زوجته ولا إلى البيت إذ أصيب في الليلة نفسها من فرط استيائه بسكتة قلبية أودت به. كافحت ثم قررت ترك ساحل العاج بعد أن تعرضت للسرقة ثلاث مرات وصارت تخاف على حياة ولدها، فباعت كل شيء بالتدريج وعادت.

أعدت الكرّة سائلاً إن كان هذا الصبي ابن خالتي. ضحكت أمّه وضمّته. أخبرتنا كل شيء وبقي السؤال معلّقاً في أذهاننا: ومن أين جاء هذا الزنجي الصغير الكامل الأوصاف؟ لم تعطنا خالتي أي إشارة، تحدثت عنه كولد شرعي لها. كان الارتباك من جهة والديّ، ينظران إلى الصغير وإلى شعر خالتي وهندامها.

في اليوم التالي، أخذت الصبي الأسود إلى السوق، أزيد بواسطته غموضاً على منظري. جلسنا في المقهى كصديقين قديمين، طلبت له كأساً من البوظة بنكهة التوت والزبائن والمارة يرمقوننا، أنا وعصاي وابن خالتي، بنظرات الاستغراب.

ضاق البيت بنا، فنحن الثلاثة حتى عندما كانت عمتي على قيد الحياة خلقنا الله من صنف قليل الكلام. لم أعد قادراً على تحمّل ضعف والديّ، انكشفت مراهقتهما أمامي وبتّ أشعر أنني صرت أكبر منهما سنّاً فطويت صفحة جديدة ومشيت.

فصل النساء

نزلتُ في فندق "بيريت – سور – مير"، عشر غرف، وصلت إليه مصادفة من تصفحي دليل العناوين المثيرة للاهتمام في العاصمة. واجهَتُه بلون السماء، نوافذه بيضاء وعينا صاحبته خضراوان ورثتهما عن أمها الشركسية الأصل. رممت مع زوجها المبنى العائد إلى زمن الانتداب الفرنسي ويقصدهما منذ سنوات، منذ النهاية "الرسمية" للحرب، رجال أعمال صغار أخطؤوا العنوان يشتكون من البطء في الخدمة، وصحافيون أجانب يتكاثرون عند حدوث عمليات اختطافٍ أو اغتيال تعيد عنف الحرب إلى وضح النهار. يذكرون في مقالاتهم كم تلذذوا بالعرق البلدي والتبّولة وشيخ المحشي، كما يأتيهما سيّاح قرؤوا شهادات عن سحر لا يوصف في بيروت. حملتُ حقيبتَي ثياب وعصوين وكتباً مختارة لم أقرأها بعد وفصول كآبتي ولوحة عنترة بن شداد الذي كان يرمقني بنظرة سوداء يلومني بها على ارتحالي الدائم به. استقررت في غرفة فسيحة عند زاوية المبنى لها نافذتان تطلّان على شارع أرمينيا ويأكل إيجارها نصف معاشي الشهري بصفتي مدرّساً بعد الحسم السخيّ الذي حصلت عليه بصفتي نزيلاً دائماً. يمكن تناول الإفطار في حديقة صغيرة لكن الزبائن يفرّون إلى الداخل لكثرة ما يحوم فيها من بعوض في كل الفصول. بدأت الجلوس في ردهة الاستقبال عند

فراغي من أعمال المدرسة، ظهري إلى الجدار ودفتر الكتابة أمامي ولو لم أعد أفتحه، أسعى إلى كشف أسرار المكان الصغيرة: التنصت على الجالس وحيداً إلى المشرب يطقطق أصابعه ويُكثر من طلب الفودكا مع شراب الرمّان، قراءة أسماء الأغاني القديمة المسجّلة على "الجوك بوكس" المعطّل في الزاوية، متابعة صاحب الفندق الذي يعبر الردهة وهو يحمل أدوات النجارة، يصلح الأبواب والمغاسل، يدهن الجدران ويرسم فوقها طيوراً بألوان غريبة وباقات زهر بينما تجلس زوجته تمرّي جمالها في عيون الزبائن.

أذهب أحياناً للاطمئنان إلى أمّي التي قلّ كلامها وسرحت نظراتها، تجيب إذا سُئلت بابتسامة متكلفة وتقول إنها بألف خير لكنها لا تحكي إن لم يتوجه إليها أحد بالحديث. تجلس خالتي قبالتها صامتة تتأمّل ما حلّ بأختها. أسأل أمي مجدداً عن أبي فتجيب أنها لا تعرف عنه شيئاً، ما عاد يحضر للغداء، أشغاله كثيرة، لا تقولها بسخرية كما كانت دائماً تفعل، فقدت طاقتها على الاعتراض.

أصحب ابن خالتي إلى المقهى القريب لنأكل البوظة، تطاردنا العيون، أعوّض له سوء المعاملة التي يلقاها في المدرسة حيث يخترعون له، كما أخبرني، ألقاباً وأصواتاً من وحي حيوانات الأدغال. يجلس وحده في الصف على المقعد الذي يتّسع لتلميذين، يهربون منه، يقولون إنهم اكتشفوا له رائحة يمسكون أنوفهم جراءها فيعود كل يوم إلى البيت باكياً. قصدت مدرسته، وبحجة موعد سابق مع المدير، تجاوزت الحاجب وتسللت إلى صفه. فتحت الباب بقوة فارتعدت المعلمة وركض الصغير نحوي فصرختُ في التلامذة بصوت صارم مخيف أن يكفّوا

شرّهم عنه وهددتهم إن عاد باكياً إلى البيت، فسأقتص من المذنب لأنّني أعرف كل شيء وأعرف أسماء المتحرّشين فحذارِ وانسحبت. ارتاح منهم لبعض الوقت فقط. أخبروني في البيت أن شابين سألا عني وتركا لي رقم هاتف كي أتصل بهما.

اكتشفت مع شرودي في زبائن الردهة أن وجوه النزلاء تتغيّر. صاحب الشعر الطويل والصندل المكشوف يظهر حاملاً حقيبته على ظهره، يمضي الليل يتنقّل بين الحانات فيعود مخموراً يتهاوى في مشيته ويختفي في اليوم التالي متوجهاً إلى دمشق. شابتان أوروبيتان، شعرهما أشقر وعيونهما زرقاء، توحي لي صاحبة الفندق بنظراتها الملتبسة أنهما متحابتان تمضيان عطلة نهاية الأسبوع في غرفة واحدة تتناولان فيها الفطور ولا تغادرانها إلّا للغداء فقط. رجل سمين يتكلم اللهجة المصرية، يستمع لنفسه ويضحك عالياً، يعلّق على الأحداث، يتحدث مع التلفاز ولا تطول إقامته. أعود إلى الورقة البيضاء، أحاول، أمحو، أمزّق وأنتبه إلى أن هناك زبوناً واحداً لا يغادر. سبعيني ينهض صباحاً، يستحم، يحلق ذقنه ويطيل الوقوف أمام خزانة ثيابه كي يختار منها الأقرب إلى مزاجه مع أن غالبيتها من الأبيض ومشتقاته. من يراه يربط الفوطة حول عنقه ويأخذ أول جرعة نبيذ أحمر وهو يهزّ برأسه ويستمتع بالتحلية بالشوكولا، يدرك أنه خبر في حياته الطويلة أصنافاً عدة من الملذّات. كان يزوره ويجالسه شاب قوي البنية، يحبّ إبراز عضلاته وأوشامه. تمضي أيام بأكملها لا يغادر فيها الرجل السبعيني الفندق، وكنا نبقى وحدنا في أيام الأسبوع الأولى فتصادَقنا. كان له وسط العاصمة القديم، الذي تحوّل رماداً في ليلة واحدة خلال الحرب الأهلية، محلّ لتجارة الذهب والمجوهرات أنقذ منه القليل. أخبرني معلّقاً بالقول: "كلما شهدنا رخاء، يأتي من يقاسمنا عليه ويهدم ما بنيناه".

لم أجارِه في نقاش لا أعرف فيه من نحن ومن هم، فأسرّ لي أن صاحبة الفندق تسرق باتجاهي نظرات إعجاب، وأنها سهلة المنال فلا بدّ أنها تخفي مشكلة: ”لا أنصحك بإطالة الأمر معها. ما إن تعتادك المرأة غير السعيدة في زواجها، حتى تبدأ النواح والشكوى ويذكّرها غرامها السرّي بما فاتها من فرص في شبابها. تصبح عبئاً عليك لا تعرف كيف تتخفف منه“.

وهكذا صار. غابت خادمة الغرف، فقرعت عليّ صاحبة الفندق الباب وتطوّعت شخصياً لتغيير الشراشف طالبة مني البقاء في الغرفة لأن مرورها لن يطول. راحت تؤدي حركات كالرقص، تنحني فوق السرير لتسحب الشرشف الأبيض الكبير في الهواء ثم تجمعه من أطرافه ببراعة، تغيّر أغطية المخدّات، تحرّك أردافها وتحكي، تسألني لماذا أحمل هذه العصا وأنا لا أزال في عمر الشباب. هبّ هواء منعش من النافذة المشرّعة على أصوات الشارع. ركعَت فوق السرير كي ترتّب زواياه ونزعت حذاءيها فكان صوت ارتطامهما بأرض الغرفة إشارة لي فتقدمت لمساعدتها من الجهة الأخرى. تلامسنا لكن لم يبادر أي منا إلى الابتعاد بل زاد تلاصقنا فأقدمتُ، قبّلتها عميقاً في عنقها فتأوهت من اللذة بصوت ربما وصل إلى مقاهي الشارع. ارتمينا على السرير لساعة من الزمن قامت بعدها بتغيير البياضات من جديد وانتظرَت زوال الاحمرار عن وجنتيها وعنقها وذراعيها، قبل أن تهرول نزولاً إلى مقعدها في ردهة الاستقبال. واضح من درايتها وتخطيطها أنها لم تكن ترتكب فعلتها هذه للمرة الأولى.

لا أدري كيف عرف النزيل الدائم بخلوتنا. بعد ظهر اليوم التالي قاطع عراكي الخاسر مع الكتابة، طلب لي كأساً من النبيذ واتهمني بداية أن رجليّ صحيحتان، راقبني جيداً فوجد أن لا حاجة لي إلى العصا. أعجبتني ملاحظته وأخبرته قصتي

فقال إن أجمل اللقاءات تحدث في الفنادق. أضاف أنه يقرأ الوجوه، وردد بيت الشعر:

- أعرف العشّاق من نظراتهم
وأرى عليها القاتلات الراضيات بسحرهنّ وكيدهنّ

خبَرَ النساء، أحسن صداقتهنّ وعرف ضعفهنّ ورغباتهنّ باستثناء زوجته التي تصغره سنّاً والتي أصرّت على الطلاق بعد اكتشافها خيانته لها وبعد أن تعبت من غسل وكيّ ثيابه البيضاء وأصلاً كل ثيابه بيضاء، قمصانه وسراويله وجواربه، وهي تتسخ بسرعة كما لا يلبس شيئاً منها ليومين متتاليين فتتكوّم وتصيب زوجته بالذعر. كانت له في ذلك وجهة نظر: "يجب البحث عن سرّ الخيانة الزوجية في الذهب والمجوهرات. يدخل علينا في المتجر تسع نساء مقابل رجل واحد".

صار وحيداً، ابنه موظف في شركة في مدينة نيويورك البعيدة ولا يسأل عنه. يملك بيتاً مريحاً، لكنه لن يبقى فيه وحيداً تعيساً يستجدي خادمة لإطعامه، فانتقل إلى العيش في الفنادق منذ سنوات وأحبّ حياة التشرّد هذه، لن يورّث أحداً أملاكاً ولا مالاً. عندما يفقد قدرته على تدبّر أموره بنفسه سوف يضع حدّاً لحياته وهو يحضّر للسيناريو الأمثل لهذا اليوم المحتوم. أعتقد أنه أحبّني لأنّني لم أحاول ثنيه عن مشروعه هذا. حذّرني من صداقتي مع المرأة وقال إن زوجها يجول كثيراً بين الغرف وقد يعثر علينا ويكشف لعبتنا فهو رجل مستقيم وعادل، ولأنه مستقيم وعادل قد يكون غضبه كبيراً، وغالباً ما يحمل بيديه أدوات حديدية قاطعة. يعتقد أنه يهمل زوجته في السرير والأرجح بسبب عجز ما لديه أو لأنها من النوع الذي لا يكتفي: "قد يثأر من عجزه هذا منك ومنها، ففي النفس البشرية أكثر من عقدة وأمي كانت تقول: اسكن في قلب أسد ولا تسكن في قلب إنسان".

لم أخف من أي احتمال يهددني، فمنذ مراهقتي الأولى وسط نيران بلدتي والخطر يناديني سرّاً وأستجيب، أتقدّم في اتجاهه بدلاً من أن أفرّ هارباً إلى الجهة المقابلة. من بعدها، تذكرت رفاقي القدامى فهاتفتهم على الرقم الذي تركوه لي فسألني صوت في الجانب الآخر باقتضاب إن كنت ما زلتُ على عهد الثورة والرفاق، فسمعت نفسي أجيب ''نعم'' من دون تفكير. أبلغني مَن هاتفته أن رسائل مرمّزة ستصلني إلى الفندق الذي أنزل فيه وأنهى المكالمة من دون كلمة وداع. في الواقع، كنت قد ابتعدت عن أفكار ليون تروتسكي لأعود وأعتنق عذابات الشاعر غوته لكنني لم أشأ خسارة صداقة الرفاق فانتظرت رسالتهم. نادتني صاحبة النزل بعد أيام بلهجة ساخرة ومعاتبة بالصوت العالي: ''رسالة غرام لصاحب الذوق الرفيع''.

و''الذوق الرفيع'' عائد في نظرها إلى الفتاة التي عرّجت على الفندق لتسليم الرسالة وكانت لافتة بجمالها. قرأت المديرة الرسالة وافترضت أن ساعية البريد هي التي كتبتها. في حمى نشاطهم السرّي الذي لم يكن يأبه لسريّته أحد ما دام السلاح بين الأيدي وإطلاق النار لا يحتاج إلى مناسبة والميليشيات تتحكم في الأحياء والمعابر، اتفق الرفاق على أن يُكتب النصّ الحقيقي ثم تصاغ حوله رسالة يكون لها معنى آخر متجانس للتضليل. كان هذه المرة إعلان اشتياق وغرام موقّعاً باسم مؤنّث بأسلوب إنشائي مدرسي فيه كمّ من المشاعر المصطنعة.

انكببت على الرسالة مع كأس من الفودكا بالحامض أفك رموزها: الحرف الأخير من أول كلمة يليه الحرف ما قبل الأخير من الكلمة الثانية... إلخ. أساليب كان يحب دعاة الثورة الأممية الدائمة العمل بها إبّان الحكم القيصري الظالم. بعد تعثّر، استخرجت من الرسالة الغرامية النص الآتي:

بأي ثمن وقبل فوات الأوان إزاحة متصدّر قوائم الأغنياء الذي كُلّف إعمار العاصمة. سيُدخل البلد في الاقتصاد الريعي ويسحق الفقراء ويُلحقنا بالعولمة المتوحّشة.

كنت شاهدت رجل المال هذا على التلفاز مراراً فبدا لي لطيفاً معطاء. استدرجت زميلي في الفندق للتحدث عنه فاتفقنا على أنه خلافاً لسائر أهل الحلّ والربط يوحي بالثقة. روى لي رفيقي عنه فصولاً من شبابه وكيف صنع نفسه بنفسه وأنه يزور أمّه العجوز مرة في الأسبوع في القرية التي لم تغادرها ويقبّل يدها ويفعل الخير باسمها، لكن الناس لا يحبّون الأغنياء، خصوصاً أولئك الذين يعرضون ثراءهم على الملء.

وصلتني الرسالة الثانية وأعطتني إياها صاحبة الفندق مع مزيد من العتب وقد طالبوني فيها بمتابعة أخباره على الإذاعات ورصد تحركاته وتسجيلها. حرت في أمري وجلست أكتب جواباً استغرقتني صياغته ساعات وأتنصّل فيه من قصة الغرام في الظاهر. أرفض وأقول إنني مرتبط بسيدة ذات عيون خضر، وشفاه شهيّة، وقوام رشيق لا أخونها ولا أبدل بها أحداً. أرضيْت غرورها لأنها لا بدّ ستقرأ ظاهر الرسالة، كما ألقي على رفاقي تحيّة ثورية في النصّ الباطني وأبلغهم أنني منشغل بأمور أخرى وبعيد جغرافياً عن الهدف المحدد.

انقطع التواصل مع الخليّة، بقيت رسالتي مع صاحبة الفندق، لم تمرّ الفتاة لتسلّمها ولم يفكّ طلسمها أحد. عادت الابتسامة إلى وجهها وقالت إنها ستحتفظ بها تذكاراً جميلاً مني لن تتخلى عنه. بعد يومين، وفيما كنت في بهو الاستقبال منشغلاً بتصحيح مسابقات الامتحان الفصلي في المدرسة، ظهر على شاشة التلفاز الذي كان يتوالى بثّه صامتاً في الردهة طوال النهار، شريطٌ يظهر فيه شاب

يرتدي بذلة جديدة وربطة عنق. وقف كما وقف الصربي غافريلو برنسيب لمّا اغتال غراندوق النمسا فرنسوا فرديناند وتسبب كما قيل في اندلاع الحرب الكبرى. استلّ مسدسه وأفرغ رصاصاته في زجاج الباب الأمامي للسيارة إلى جانب السائق حيث افترض أن رجل المال كان جالساً. رفع من بعدها يديه إلى الأعلى إشارة إلى رغبته في الاستسلام وبقي في هذه الوضعية حتى وصل درّاجان من قوى الأمن الداخلي ألقيا القبض عليه. لم يُصب التايكون لأنه كان يستقل السيارة الخلفية في الموكب وقيل أنه كان يقودها. أسفتُ للفشل الذي يطارد ''التروتسكيين العرب'' في مخططاتهم وشعرت بالارتياح لأن الرجل خرج معافى وخرجت معلمة الفلسفة أخيراً عن صمتها معي.

كان استدراجها سهلاً، سألتها عن رأيها في الزواج فكشفت سرّها، تلفتت حولها وقالت إنها لا يمكن أن تفيدني لأنها غير متزوجة وتسكن مع أمها وكتبها أيضاً. تضع خاتماً في إصبعها وتشيع خبر زواجها كي تبعد الرجال عنها. مع ذلك، كانت تعتني بجمالها، تضع البودرة على وجنتيها لتكسر شحوب وجهها الذي يذكّر بنساء دولاكروا.

كانت النساء اللواتي التقيهن يأخذنني بعيداً عن نفسي، إلى الميتولوجيا التي تسكنني بينما كانت أمّي تردّني إلى حيث بدأت: رطوبة النهر الصباحية الزاحفة إلى البيوت والمسببة مرضَ ضيق المفاصل، مدرّس الرياضيات الذي كان يمشي على رؤوس أصابعه، والد رفيق المراهقة يحتسي العرق في سهرة صيف حار ويتجادل مع زوجته حول سلالة، سلالتي، تقاوم قدرها بما تيسّر لها من جنون تدمي به نفسها ولا تؤذي الآخرين.

احتفظت بمعلمة الفلسفة ذخيرة، أجّلت دخولي إلى عالمها حتى أفرغ من مشاغلي. أذهب إلى أمي، أجلس إلى جانبها، أشمّها وأحاول إخراجها من توغّلها في نفسها، لا أنجح في إضحاكها بأخبار مرحة. كانت سارحة تختبئ من الحاضر، تنظر ولا ترى شقيقتها تفرض أسلوبها في البيت، تزيّن الجدران بعرائس أفريقية ولا تسمعها تنهر ولدها بالفرنسية. عرضت خالتي المشاركة في إيجار الشقة فرفض والدي، أراحت أمي من الطبخ، تحضّر أطباقاً حارة من شاطئ العاج أسماؤها غريبة. تحاول تثبيت نفسها في بيتنا إذ لن تطأ قدماها مسقط رأسنا بعد اليوم فهي ستكون هناك فريسة سهلة للعداوة، ستتهم بموت زوجها وسيسخرون منها بسبب الزنجي الصغير الملتصق بها، سيرونه عقاباً لها على ''اختطافها'' رجلاً من زوجته وابنته. أخذت كل أمور البيت على عاتقها واكتفت أمي بالاعتناء بزنابق الشرفة وورودها الصفراء. وكانت بين حين وآخر تكتب. في صفحات **الإنجيل** الفارغة وفي الهوامش. لا أعرف ما الذي دفعني إلى تصفّح كتابها لمّا وجدته وحيداً على الكنبة، أردت إعادة قراءة عظة المسيح على الجبل والتمعّن في أقوال بقي معناها ضبابياً مثل:

طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات، طوبى للودعاء لأنهم سيرثون الأرض.

فوجدت أمي تدوّن بخطّ بطيء مائل ابتهالاً للعذراء مريم كي ترمي عليّ مشلحها الأزرق وتحفظني من الأقدار. وفي الهامش إلى جانب فصل ''قيامة أليعازر''، كتبت بخط مجهري دقيق:

كان والدي يخاف الموت ويخشى ألا يكون الله موجوداً، ويوم وفاته سألني وهو ممدد في الفراش يتنفس بصعوبة: ماذا أعتقد، فارتعبت ورُبط لساني، ثم قال: فلنصدق أنه هناك في انتظارنا. وأغمض عينيه إلى الأبد.

كعادته يطيل والدي البقاء خارج البيت، لم أعرف إن كان قد تورط في مغامرة جديدة. مررت أمام محل عمله فرأيته بكامل أناقته وشعره اللماع المسرّح جيداً يهمس في أذن بائعة شابة تطلق ضحكة رنانة، فأكملت مسرعاً عائداً إلى الفندق لأجد رجلَي أمن بالزيّ العسكري في انتظاري. رافقتهما إلى المخفر من دون تردد للإدلاء بشهادتي، فالتقيت هناك بالقسم الأكبر من أعضاء الخليّة فقبّلنا بعضنا بحرارة وكان لأحد رجال المخفر مأخذ علينا غير متوقع: "أنتم جبناء! لا يمكن الاتكال عليكم؛ أرسلتم للمهمة شاباً لا يحسن التصويب".

أدركت عندئذ أن الحرب لم تنتهِ بل تغيّر شكلها. لم ننكر معرفتنا بمطلق النار، قلت عنه أمام المحقق إنه عنيد لا يحيد عن مبادئه، لكننا أجمعنا على أننا لم نشارك في محاولة الاغتيال والمتهم يكرر أمام المحققين من لحظة اعتقاله أنه وحده المخطط والمنفذ. وجدوا أسماءنا في دفتر هواتفه، واتهمونا بتأليف عصابة مسلّحة وحجرونا معاً في نظارة المخفر فأنشدنا:

شيّد قصورك عالمزارع
من كدّنا وعمل أيدينا،
وافلت كلابك في الشوارع
واقفل زنازينك علينا

تبادلنا الذكريات والأخبار قبل أن يطلقوا سراحنا بسبب صعوبة إطعامنا وإيجاد أسرّة لنومنا في النظارة الضيّقة كما أنهم لم يثبتوا علينا أفعالاً شائنة ارتكبناها فتركونا بسندات إقامة. ظهرت صورنا واقفين متحلّقين وأنا في الوسط أتكئ على عصاي. كنا نشبه فريق كرة السلة في الصفحات الداخلية لجرائد اليوم التالي. حصلنا على هذا القدر من التساهل لأنه كان للرجل أعداء في مواقع الدولة العليا.

لعبنا لعبة من هم أقوى منّا في النهاية وسمعت همساً أن جهاز استخبارات نجح في استمالة واحد من عناصر الخليّة النافذين وأملى عليه مهمة الاغتيال هذه التي لم يكتب لها النجاح. تطوّع للدفاع عنا مجاناً محاميان نجحا في إيقاف التعقبات بحقّنا، فانفرط عقدنا وبقي اثنان أو ثلاثة منا فقط يجرجرون الاسم الثوري.

عرف زملائي في المدرسة بما حدث فراحوا يتهامسون حولي، يتفرّسون بي كأنهم يتعرفون إلى ملامحي من جديد. أرادت معلمة الفلسفة أن تعرف إن كنت قرأت كتاب **رأس المال** وإن كنت أؤمن بالجدلية التاريخية. وصلت الأخبار إلى الفندق أيضاً فأرادت صاحبته الفوز بي مجدداً، حاصرتني وأسرعنا إلى غرفتي لكن بعد وقت قصير علا صوت زوجها يناديها من الممر، فتوقفتُ لكنها ثابرت كأن وجوده خلف الباب كان يثيرها. همست في أذني أنه سينصرف بعد دقائق وهو يصدق كل ما تخبره به وختمت بحزم: "على كل حال ليس له حقوق عليّ".

أخبرت صديقي المقيم بما حدث فتأكد له أن الرجل عاجز، وقال إن ما قيل عني أثار حماستها، فهكذا هنّ النساء. أما في بيت أهلي، فلا أثر للصحف ولا متابعة للأخبار. وجدت هناك حالة أمي تسوء، ترتدي ثيابها وتجلس في الصالون من الصباح إلى المساء ولا تأكل إلا القليل رغم المحاولات المتكررة لإقناعها، فقررت اصطحابها إلى الطبيب. اختلى بها قرابة الساعة، ولما خرجَت، استدعاني إليه وقال إنه سيعطيها دواء يُحدث لديها بعض النشوة فهي مصابة بالاكتئاب النوستالجي العميق، وأوصاني بمحاولة الترفيه عنها. نقلتُ إلى خالتي توصية الطبيب فقالت إن لديها شراباً طبيعياً يحضّره الزنوج فكررت عليها ألا تتركها وحدها وأعطيتها رقم هاتف الفندق. اكتشفنا في ما بعد أن أمي كانت تدّعي تناول الدواء لكنها كانت تخفيه في خزانة ثيابها.

في هذه الأثناء، مرت المراسلة الألمانية الشابة من صحيفة *Frankfurter Zeitung* كالشهب. أنزلها موظف الخدمة مصادفة في الغرفة الملاصقة لغرفتي وقبل أن تنتقل إليها وصلت صاحبة الفندق فادّعت أن الغرفة محجوزة وأودعتها في الطابق الآخر. بذلت جهدها لإبعادنا عن بعضنا بعضاً لكن كنا تبادلنا الكلام قبل وصولها وأكملنا في المساء بحرارة ننهل معاً من الأدب الألماني، تحت نظرات سيدة المكان الساخطة. كان مفتاحي إلى قلوب النساء مجرّباً، أتذمّر من أن الحياة سراب غادر وأنني أحمل معي عبء أوهامي ووقع خيباتي أينما ارتحلت أو استقررت. كانت شقراء عريضة المنكبين لا تفارقها آلة التصوير، جُلت معها على البؤس والمجارير في الأزقّة داخل مخيمي صبرا وشاتيلا. لاحظنا صور مئات القتلى على الجدران المتسخة ولحق بنا رهط من الصغار أثارهم وجود امرأة شقراء، ومن هناك نزلنا إلى الوسط التجاري الجديد حيث الأبنية الفخمة وزرقة البحر وشجر الليلك الأحمر. كانت تصطاد التناقضات: عجوز مشرّد أمام محلات Christian Dior أو مبنى يحمل كل ندوب الحرب ومرور الزمن إلى جانب واجهة مصرف زجاجية لمّاعة. وفي طريق العودة إلى الفندق، تحدثنا عن بيروت وطائر الفينيق، وعن لبنان وأسطورة سيزيف وغيرها من الاستعارات السهلة. صعدَت إلى غرفتها ولحقت بها متسللاً، في السرير، تلامسنا على إيقاع رواية ”قارع الطبلة“ وتبادلنا القبل على همس القصائد الألمانية، فكانت تصاب بضحكة مجنونة وتقول: ”لا بد أنني أحلم“، فتفرك عينيها كي تستيقظ. أدخلتني في تحقيقها عن العاصمة، عادت بي إلى وسط المدينة كي تلتقط لي صوراً أقف فيها وأنا أنظر إلى البعيد متكئاً على تمثال الشهداء الذي أعيد ترميمه ورفعه في المكان الذي اقتلعه منه المسلّحون. أخبرتني قبل أن تغادر أنها ستكتب مقالة بعنوان ”أنا

وهنريش هاين والمدرّس الوسيم في الفراش في بيروت''، سيحبّها مدير تحرير الصحيفة. أرسلَت قصاصة الصحيفة الألمانية إلى عنوان ''بيريت – سور – مير'' بعد مغادرتي الفندق وأتخيّل صاحبته قد وجدت من يترجم لها المقالة فيزداد إحباطها وتتأكد لها سفالة الرجال فتضع الجنس جانباً وتتخذ زوجها صديقاً أميناً يقيها غدر العابرين في نزل يدّعي أنه يشرف على البحر لكنه لا يطلّ سوى على شارع مزدحم بورش تصليح السيارات والمقاهي الرخيصة.

أفعل ذلك كله ويلازمني شعور بأنني أهمل الكتابة التي تركت البيت من أجلها، تعدني بعالم متماسك لي فيه اليد الطولى خارج مرارة الحياة وفجواتها. لكن في الانتظار يبدو أن الآخرين وخصوصاً النساء يلتهمون حياتي، يزرعونها ويتوزعون محصولها. لم أتمكن سوى من إضافة صفحات قليلة إلى اليوميات التي كنت قد بدأتها في المقهى حول مراتب الأيام وألوان الفصول، مشاعر جمعتها حول شاب يهزمه ذبول شجرة البنفسج ونظرات الأسى المبكر في عيني فتاة صغيرة، ويتابع بقلق من نافذته الأولاد الذين يلعبون بـ''البومِرانغ''، يقذفونه في الهواء ليعود إليهم، ويحلم بالتخلص من كتبه لأنه يريد أن تكون المواجهة مع الحياة عارية من دون سعفة، عيناً بعين. تفاصيل هشاشة ربما تخبر عني أكثر من أعمال الخلية الثورية ومن مغامراتي المتتالية خلال فصل النساء اللواتي تعاقبن عليّ في ''بيريت – سور – مير''. كان فوزي بهنّ سهلاً في فندق العبور هذا، بعيداً عن دفاعاتهن الأليفة وأنا أبدو لهنّ جزءاً من المكان، أبسّط لهن أحياناً ألغاز الشرق بلغتهنّ الأم فآخذهنّ بدوري ستاراً أطيل به ذهولي عن الثقب الأسود في حياتي. سويدية فارعة الطول تدرس العربية في الكتب وتريد سماعها من أفواه أهلها، تأتي إلى بيروت وتقف حائرة أمام هيروغليفيات لغة الضاد، تقترب من

لوحة عنترة في غرفتي، تداعب حروف أبيات المعلّقة بأصابعها وتقول: ”لا بد أن المسلمين محقّون عندما يقولون إن الله أنزل القرآن بالعربية“. فرنسية من أصل مغاربي وُلدت في ضواحي باريس أترجم لها كلمات أغاني أم كلثوم ونحن عراة تحت الغطاء فتشعر أنها عادت إلى جذور لها مع أنها لا تعرفها. عالمة آثار تركية تساهم في اكتشاف بيروت الرومانية، اكتفينا بجلسات حميمة في بهو الاستقبال، لا تشرب الكحول، لا تدعوني إلى غرفتها، أعتقد أنها تجلب معها من حفرياتها فخاريات ستحملها سرّاً إلى إسطنبول.

أوصلت علاقاتي الزائلة التي كنت فيها أقرب إلى دور المومس صاحبة الفندق إلى اليأس من تأليف قصة حبّ معي. لا أعرف أيّ وهم كانت تطارد في تعلّقها بي وأيّ مستقبل ترسم المرأة المتزوجة لهذه النزوة مع رجل أصغر منها بسنوات. توقفت عن الاهتمام بي وصارت تتبادل في العلن الهمسات مع زوجها الذي بدا كأنه اكتشف وجودي، أنا الذي كنت أتفادى النظر في عينيه حتى لا ألفته إليّ. بعد أيام، جاءني النزيل الدائم بثوبه الأبيض وربطة عنقه الحمراء واصطحبني خارج الفندق في نزهة على الأرصفة حيث أخبرني كيف طلب منه صاحب الفندق أن يبلغني بأنه لم يعد يريدني زبوناً فهو لا يرغب في خراب بيته ونزله: ”أخبرته زوجته أنك تتحرّش بها. إنها تغار وتريد معاقبتك بسبب مغامراتك يميناً ويساراً“.

هكذا شاطت طبخة ”بيريت – سور – مير“، مضر حليبها ولم أتخيّل فندقاً كوسموبوليتياً آخر يأويني في الوقت الذي بدأت أمي تشكو أوجاعاً في الرأس لم تنفع معها المسكّنات المعروفة. أوصيت زميلي أن يطلب من صاحب الفندق منحي مهلة أسبوع واحد كي أجد حلاً.

الأشوريّ الموقّت

تسارعت الأمور. كنا، أنا ومعلمة الفلسفة في "الراعي الصالح"، نمرّ في فجوة هوائية ونحتاج إلى يد تشدّنا إلى الأعلى. غادرت فندق شارع أرمينيا بعد إلحاح صديقي واستوطنت بيت أهلي مجدداً، أجالس أمي، أدفعها إلى الكلام فلا تفصح عن الكثير. كانت تذبل، تموت بين أيدينا ولا نعرف كيف نتشبث بها. نزور الطبيب فلا يجد في الفحوص التي يطلبها ما يثير القلق على صحتها، لكنها كانت أدرى بحالها وغدها فتوصي خالتي: "عندما أرحل، اهتمي بزوجي وابني".

وعندما تسأل خالتي إلى أين تريد أن ترحل في مزاح تخفف معه الجدّ، كانت ترتسم على وجه أمي ابتسامة ساخرة صغيرة.

لم يكن الزواج وارداً في مفكرتنا عندما كنا نخرج، أنا وزميلتي من المدرسة، سيراً على الأقدام، ندور في الشوارع كي يطول الكلام بيننا. كنا عقلَين مجرّدَين، نتحاور في المعرفة الأدبية التي كنت أكتفي بها لرصد مظاهر الدنيا وأسرارها، وبالفلسفة، تاج العلوم كما كانت هي تسميها. لا أسألها عن أهلها أو مسقط رأسها، أفضّلها مجهولة المصدر خارجة من لا مكان، وهي بدورها تتجاهل سيرة حياتي قبل أن التقي بها. نجول داخل فقاعة من الأفكار كأننا خرجنا للتوّ نظيفَين من بطون الكتب. لا تحبّ المقاهي، لا تتحمّل بلادة الرجال الذين يجلسون دالقين بطونهم أمامهم، فنسير وقبل أن نفترق نتواعد على أن نكمل في الغد جدالاً لا

نهاية له بدأناه عشوائياً، نلتقط فيه من كل وادٍ عصا. في الواقع، كنا نخوض منافسة ثقافية استعراضية مليئة بأسماء العلم وعناوين الكتب عدا الاقتباسات التي نوردها عن ظهر قلب لتأكيد أفكارنا. استبدلنا الكلام بتباعدنا الجسدي. لا قبلة، لا يدَ في يد، لا مداعبة... أواظب على حفظ المسافة بيننا حتى أنني كنت أعتذر عن لمسة تحدث من دون قصد فأنتزع منها ابتسامة مغزاها أنها تفهم لعبتي. وَعدت نفسي بقصة فريدة معها تنقذنا من التكرار فحصلت على أسوأ ما كنت أخشاه. ثابرنا قرابة الشهرين على التأهب، نقاش ونزهات قصيرة، نؤجل احتفال جسدينا ونفرح بدفق أفكارنا إلى أن ارتكبتُ حماقة حياتي.

كنا نسير في شارع سرسق أمام قصر من الحقبة العثمانية مختبئ خلف أشجار الكرز الياباني عندما توقفت وطلبت منها بلهجة رسمية بتصنّع بالغ: ''هل توافقين، سيدتي، على السكن معي؟''

كان ردّها سريعاً وباللهجة نفسها: ''يجب أن تعلم، إن كان يهمّك الأمر، أنني لا أرى الزواج رباطاً مقدساً''.

ضحكتُ بدوري عالياً وقلت بصدق إنني أتفق معها في الرأي.

أخبرَت أمها أنني وحيد أهلي وجميل الوجه ومثقف. لا أعرف أياً من تلك الصفات كانت الأكثر إقناعاً فوافقَت والدتها شرط أن نتزوّج ''على شرع الله''. بعد أيام سألتني: ''أين تريدنا أن نسكن؟''

أنزلنا سؤالها على الأرض التي كنا نحلّق فوقها، فبعد حماستها للمثالية الهيغلية وما كنت أبشّر به من مزيج فريد من الماركسية الجدلية والشاعرية الغامضة، صرنا ندرس كلفة إيجار البيوت داخل حدود العاصمة الإدارية وخارجها. نتنافس أيضاً في اختيار ماركة الغسالة أو فرن الغاز ونتّفق ثم نختلف. كنا عموماً نختلف

على وجود غرفتَي نوم مستقلتين، واحدة لكل منا، ونبحث في ما سيكون عليه مصير أمها من دونها. تكاثرت أشياء الحياة الصغيرة والمواجهات التافهة ولا أذكر أي لحظة، أي تفصيل أدخل سمّ الشقاق بيننا فعادت الغيمة السوداء تحوم فوق رأسي. إذا انبسطت الدنيا أمامي، صرت حروناً، دابة تمانع في التقدّم فتجرّني الأيام جرّاً.

وصلنا إلى ترتيبات العرس فتوافقنا كمثقفَين رصينَين لا يحبّان المظاهر على حفل يقتصر على الأهل والأصدقاء المقرّبين. أصرّت فقط على ثوب الزفاف الأبيض وعلى ولدين يحملان ذيله، واقترحت من جهتي للمهمة ابن خالتي الأفريقي الصغير، قبل أن تُخرج أرنباً جديداً من كمّها.

"أنا مسلمة"، قالت.

لم يكن في اسمها واسم عائلتها ما يدلّ على ديانتها؛ أسماؤها صالحة لكل الطوائف في بلاد الكتب المقدسة هذه، بعكسي، أنا الذي أجرجر معي منذ ولادتي اسم جدّي لأبي، اسم أشهر تلامذة يسوع المسيح الذي صُلب رأساً على عقب لأنه رأى نفسه غير جدير بالتشبّه بمعلّمه. تُوافقُ على الزواج في الكنيسة لكنها لن تغيّر دينها. كانت تنصب الحواجز وأنا أقفز فوقها. أبلغتها أنني لا أريدها عذراء ولا أريدها مسيحية، لا، بل كنت مستعداً لمرافقتها إلى المحكمة الجعفرية كي نكتب كتابنا هناك. اعتذر الكاهن الماروني عن عقد قران مسيحي على مسلمة شاهراً آخر تعليمات البطريركية، وكذلك فعل رجل الدين الشيعي، فلجأنا إلى خدمات طائفة الأشوريين؛ يوافق كهنتهم على الزواج المختلط. أعتنق الأشورية بمجرد إجابتي بـ"نعم" عن سؤال واحد يطرحه عليّ مطران جبل لبنان،

ويمكنني بعد الزواج العودة إلى ما كنت عليه، وهي تبقى على ما هي عليه: شيعية إثناعشرية من حيّ بيضون، سكان العاصمة بيروت.

وصل أهلي إلى الكنيسة، المجموع أربعة أفراد بعد الدعم الآتي من ساحل العاج، بسيارة تاكسي حمراء، ربطت خالتي على الهوائي فيها مجموعة كبيرة من البالونات الملوّنة. بدا والدي كما أعرفه راضياً عن جمال العروس، ينظر إليها ثم يلتفت نحوي ويهزّ رأسه معجباً بحسن اختياري. ارتدت أمي حلّتها الجميلة وكانت مستاءة لأنّني أُقدم على الزواج وهي دوماً حاولت أن تنهاني عن ذلك. حضر أقرباء العروس بثلاث سيارات، ترجّلوا وهم يتهامسون بحدّة، يلوّحون بأيديهم ويتجادلون في شأن الزواج على الأرجح، بينهم قريبتان تضعان غطاء الرأس، واحدة دخلت إلى الكنيسة والأخرى لم تخطُ خطوة فانتظرت خارجاً. في ذلك اليوم فقط، عرفت أن والد العروس متوفٍّ، وكان خطّاطاً معروفاً حملت معها تذكاراً منه إلى بيتنا، لوحة كتب عليها بحروف هندسية:

ملأى السنابل تنحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخ

جاء من دون دعوة عدد من الأساتذة الزملاء في "الراعي الصالح" المتزوجين مع نسائهم، وقد اختاروا بزّات وربطات عنق للمناسبة. قبل بداية المراسم، وصل أيضاً ثلاثة رفاق قدامى من الخليّة الثورية لا أعرف كيف بلغهم النبأ وكيف اهتدوا إلى الكنيسة، كتّفوا أيديهم وبقوا واقفين طوال الحفل عند الباب، إلى جانب جرن المياه المقدّسة كي لا تُحسب عليهم زيارة إلى الكنيسة، هم الذين يؤمنون بالتاريخ والصيرورة بدلاً من الإله الخالق. اقتربت منهم فأخبروني أنهم باتوا مجرد أصدقاء وأن غالبية أعضاء الخليّة اقتنعت في النهاية أن بلدنا يملك الاقتصاد الذي يستحقه ومنهم من دخل عالم الأعمال.

هكذا شكّل المسلمون والملحدون بمن فيهم العروسان الغالبية الساحقة في ذلك اليوم داخل كنيسة مار جاورجيوس الأشورية القريبة من المتحف الوطني. تأخر شاهدي عن الحضور، وكنت قد اخترت للمهمة صديقي من "بيريت – سور – مير"، الذي كنت أشكّ أيضاً في إيمانه القويم قبل أن يكشف لي لاحقاً أنه بروتستانتي لأن والده الأرثوذكسي المولد تتلمذ على يد الإنجيليين واعتنق عقيدتهم كي يضمن لأولاده الدراسة المجانية في الجامعة الأميركية في بيروت. كدنا نستبدل به من يتطوّع من أساتذة المدرسة لكنه دخل لاهثاً قبل بدء المراسم بدقائق وقال إن سائق التاكسي اختلط عليه الأمر فأخذه إلى كنيسة كلدانية بعيدة من هنا. باستثناء الكاهن ومساعده صاحب الصوت الرخيم الذي ساومني على المبلغ الواجب دفعه مشدداً على أن أسعارهم ثابتة للعماد والجنازة والزواج، كنت الأشوري الوحيد والموقت بينهم. أهملت في ما بعد العودة إلى طائفتي الأصلية بعدما قيل لي أنها تتطلب إجراءات معقّدة يلزم سنوات لإتمامها، فصرت أيضاً الأشوري الوحيد في بلدتي. ويوم اضطررت إلى الحصول على إخراج قيد جديد يظهر فيه اسم زوجتي، تذكرني مأمور النفوس الذي قيل أنه أجّل تقاعده بأنْ زوّر تاريخ ولادته وقدّمه خمس سنوات، تذكرني وقال: "أنت الشيوعي؟ صرت أشورياً الآن! بلّغ تحياتي إلى والدك".

كان ابن خالتي نجم حفل الزفاف وتخيّلت أن والده البيولوجي ربما يكون إحيائياً يزيد من تعدد الأديان داخل الكنيسة الصغيرة في العرس الذي أردناه حميماً. ترمقه الفتاة التي اختارتها العروس لتحمل ذيل الفستان من الجهة الأخرى، بنظرات خائفة؛ لم تشاهد قبل هذا اليوم زنجياً من كثب. بقيت أمّي جالسة طوال

الصلاة تتنهّد متعبة. طلبت العروس من الكاهن أن يقرأ مقطعاً من كتاب **النبيّ** لجبران خطّته بيدها على ورقة، لفتني فيه قول الكاتب الذي بقي عازباً:

فليكن بين وجودكم معاً فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض حتى ترقص أرياح السماوات في ما بينكم.

كان في اختيار هذا النصّ سخرية لن تكشفها سوى الأيام التالية. ثم ألقى الكاهن خطبة قصيرة تحدّث فيها، ربما لأننا كنا، أنا والعروس، من طائفتين مختلفتين، عن التعايش والتنوّع كمنبع للثراء الثقافي والاجتماعي. عرّج على فكرة لبنان الرسالة قبل أن نحتل الفسحة الخارجية حيث وصل مصوّر فوتوغرافي راح يرتب الحضور حولنا. وضعنا الصورة لاحقاً ضمن إطار وعلّقناها في مطبخ بيتنا الجديد إلى جانب صورتي القديمة مع عمتي والكلب والجنرال ديغول. في صورة العرس خالتي بثياب قليلة خفيفة تليق بطقس ساحل العاج الحار، وصديق الفندق بعطره الفاخر هامساً في أذني: "لو سألتني، ما كنت نصحتك بالزواج".

ربط البابيون حول عنقه وأخرج المنديل من جيب سترته. أنا ومعلمة الفلسفة مبتسمان وسط الجمع، الرفاق الثوريون السابقون الذين لا يعيرون المناسبات اهتماماً أتوا بالقمصان الخفيفة وسراويل الجينز وقد وقفوا أمام عدسة المصوّر مسايرة لتقليد يستخفّون به عموماً. بعض أقرباء العروس منقبضو الوجوه، النساء بثياب وفيرة والرجال في انتقالهم بين الريف والمدينة غالبيتهم بالشاربين وبالسراويل الواسعة أو القمصان من دون ياقات. خلطة فريدة. يوم الزفاف هذا كان يوم الفرحة الوحيد في ما يسمونه الحياة الزوجية.

حياة بدأت بموت أمي. استيقظ والدي كالعادة إلى عمله. ابن خالتي شدّ الحقيبة على ظهره وانطلق إلى متاعب المدرسة، فيما خرجت أمّه تتسوّق. سوف تكرر

خالتي ندمها لأنها تركت شقيقتها وحدها، وبقيت ألوم نفسي لأنّني كنت أعرف أن موتها وشيك ولم أفعل كل ما في وسعي كي أنجدها. أخرجت الحبوب المسكّنة من خزانتها وابتلعتها. رفعت رجليها على المقعد، سندت رأسها إلى المخدّة ورمت على جسمها غطاء خفيفاً ونامت إلى الأبد. ذهبت إلى حيث اعتقدت أنها ستلتقي ببراءتها وبوالديها.

عادت خالتي من السوق، لمحتها جالسة في مكانها المعتاد فدخلت مباشرة مع أكياسها إلى المطبخ، نادتها من هناك فلم تجب، كان يحدث أخيراً ألّا تجيب حتى لو سمعت، فانشغلت عنها بتحضير الغداء. الصمت كان مطبقاً في غرفة الجلوس. ذهبت إليها، اعتقدت أنها نائمة، نظرت إلى وجهها المنقبض القسمات، لا بدّ أنها توجّعت قبل أن تسلم الروح، حرّكتها من كتفها فانقلبت إلى الجهة الأخرى، لا تتنفّس. صرخت خالتي صراخاً حاداً تردد في طوابق البناية ثم فتحت الباب وخرجت مجنونة، في استغاثتها ولولة أفريقية عميقة، لن تبقى وحدها مع أختها الكبرى المرتخية من دون حراك.

كما ذهبنا إلى العرس، حمّلتنا سيارة واحدة لحقت بسيارة دفن الموتى إلى البلدة، صلّينا عليها هناك بحضور جمهور جاء ليرانا بعد غياب. دفناها إلى جانب أبيها وأمها حيث تمنّت أن ترقد. حضرت زوجتي وكانت صامتة، وجهها مقفل طوال الرحلة والجنازة. لم تجرؤ خالتي على مرافقتنا، أهل زوجها يحمّلونها وزر موته، يوغرون صدر ابنته الصبيّة عليها ويتوعدون بأذيتها. خصّ الكاهن أمّي بتأبين مدح فيه تكريسها نفسها لعائلتها وإيمانها متجاهلاً ظروف وفاتها. رافقناها إلى المقبرة خلافاً لعادة أهل البلدة الذين لا يزورون موتاهم سوى مرة في السنة، مطلع تشرين الثاني.

عند عودتنا إلى العاصمة آخر النهار، مهزومين، فتحتُ إنجيلها فوجدتها قد أضافت إلى الصفحة الأخيرة:

السماء قاتمة والشيطان يتحكّم في الدنيا وسينحبس

المطر عقاباً لمرتكبي الخطايا، جنّة العالم هي الطفولة.

للمرة الثانية في حياتي الراشدة، بكيت، بكيت كثيراً، صرت أغتنم فرصة خروج زوجتي إلى المدرسة لأجهش بالبكاء عالياً، أرتاح عندما أبكي عالياً وأنا أجول في أرجاء البيت الذي اهتدينا إلى سكناه أخيراً، أعتقد أنني كنت أبكي على أمي وعليّ. ما زالت ماثلة أمامي حتى اليوم بنظراتها التائهة كأنها تستغيث في بحر لا يرحم، عالقة فوق ما يشبه طوفاً تلطمه الأمواج. لم آخذ من مقتنياتها سوى **الإنجيل** والقبعة التي تعلوها ريشة سوداء وصفراء. قرأت كلماتها فتحوّل قلقي إلى هلع. هلع من أن الميل إلى الخراب لا يأتي مما يحدث معنا في يوميات الحياة بل مما نحمله داخلنا ولا نعرف متى يخرج إلى العلن ولا يمكننا التحكم فيه، ومن أن حياتي كلها حتى الآن محاولة للسيطرة عليه. كان الحمل موزّعاً بيني وبين أمي، أما مع رحيلها، فشعرت أن الثقل مال إلى جهتي وحدي فصرت عطوباً، تفور أعصابي عند أدنى معاندة. لا أتحمّل الشواذ في المدرسة، يضيق صدري بترهات المراهقين فأصرخ في وجههم ويصل صوتي إلى مسامع المدير الذي يسارع إلى التدخل دفاعاً عنّي. لكن في أحد الأيام تقلّد تلميذ لهجتي وكنت كأنني فرنسيّ أصيل ألفظ ''الغاء'' بدلاً من ''الراء''، فأضحك رفاقه مني وعلا الهرج والمرج. لوّحت له بالعصا لكنني تراجعت عن ضربه بها مكتفياً بتسديد صفعة قوية على وجهه أعادت الهدوء إلى القاعة. استدعاني على إثرها المدير ليوجه إليّ تأنيباً. استقلت

مقابل تعويض زهيد فبقيت لي نيات الكتابة وفوائد حساب عمتي وكنت قد نجحت إلى حينذاك بتجنّب المسّ بأصل المال.

أخذنا سمسار البيوت بعيداً، ارتفعت الإيجارات في بيروت بجنون فطردتنا المدينة إلى تخوم ضاحيتها الشرقية. تتراجع الإيجارات كلما ابتعدنا عن وسط المدينة. وصلنا إلى منزل في الطابق الأرضي أمامه شجرة صنوبر تلوي عنقها حزناً، نجت من العمران الزاحف صعوداً إلى التلال المحيطة بالعاصمة. تذكّرت ما قاله صديقي المشّاء عن الضواحي الشرقية التي تستقبل الوافدين الجدد إلى المدينة من الريف المسيحي فإذ بنا نكذّبه فنخرج إلى هناك من قلب العاصمة مع حمولتنا من الكتب واللوحات الفنية، شيعية وماروني تحوّل أشورياً.

ارتضينا بمنزل أُعيد ترميمه وتقسيمه: غرفتَي نوم وفسحة كبيرة اختلفنا من اليوم الأول على تأثيثها. لا أدري كيف تحوّل سكنانا معاً إلى يوميات حرب لا تهدأ. اعترضت على لوحة عنتر وعبلة لأنها ساذجة فعلقتها على جدار غرفة نومي ورفضت فكرة طاولة بلياردو ومقعدين من الجلد الشيسترفيلد. الجلد بارد والبلياردو لا يعني لها شيئاً. تحبّ السجّاد والستائر السميكة والعتمة وشبه العتمة وأنا أفضل الضوء والفراغات الواسعة. في النهاية، اتفقنا على أن يفعل كل منا ما يريده بغرفته وأن نترك الصالة الكبيرة عارية حتى نتّفق على ما نزينها به. في انتظار ذلك، كنت إذا وضعت فيها كرسياً للجلوس أعود فأجدها أخرجته إلى الشرفة أو المطبخ، نتجادل قليلاً ثم نهدأ. لكن بعد موت أمي، بدأنا نتشاجر حول كل شيء، كل اقتراح وكل لون نختاره، نتفادى بعضنا في المدرسة وعند عودة الصفوف في الخريف، انتقلت هي إلى مدرسة أخرى وأنا تركت التدريس. اشترت سيارة من مدخراتها من دون أن تخبرني. بقي زواجنا أبيضَ لأكثر من

شهر، لم أكن مستعجلاً. مارسنا الجنس بضع مرات، دائماً بعد شجار عالي النبرة، نكاد نتضارب بالأيدي ولا أرتاح حتى أحطّم أحد أغراضنا العزيزة: آنية كريستال جلبتها معها في جهازها، أو صورة عرسنا التي كسّرتها في إحدى نوبات غضبي ورميتها من الشرفة على الطريق العام فلم تبقِ عجلات السيارات العابرة أثراً منها. رغم ذلك، كان ينتهي بنا الأمر أحياناً في غرفتها من دون شوق، مجرد تكملة لزواجنا، وكنت بعدها أمضي الليل في غرفتي وحيداً مكتفياً. نأكل وجبات جاهزة لا طعم لها ونادراً ما نلتقي على طاولة المطبخ. نضب بيننا الكلام، نكتفي بعبارات سريعة حول شؤون حياتنا العملية. ذات يوم وكنت واقفاً عند تقاطع طرق أنتظر سيارة أجرة أستقلّها إلى المكتبة التي اعتدت ارتيادها، رأيتها تقود سيارتها، أعتقد أنها رأتني بدورها لكنها أشاحت بوجهها إلى الجهة المقابلة. لم تكن وحدها، كان رجل يجلس على المقعد الأمامي إلى جانبها. لم أسألها لمّا التقينا مساء في البيت، افترضت أنه زميل لها في مدرستها الجديدة. في مصادفة أخرى، لمحتهما معاً مرة ثانية، كان الرجل يقود السيارة وهي جالسة إلى جانبه. ثم بدأت تتلقى اتصالات خاصة على هاتفها المحمول وقد اقتنته باكراً وربما تسهيلاً لتواصلها مع رفيقها أو عشيقها الجديد، فلا تجيب قبل أن تخرج إلى المدخل في ظلّ شجرة الصنوبر وتطيل الكلام لتعود صامتة تحضّر الجواب عن سؤال لم أتنازل وأطرحه عليها مرة.

التقيت صديق الفندق. قدّم إليّ سيجاراً فاخراً وكأس كونياك في أحد المطاعم المرموقة، يعتقد أن أناقة الثياب وجمال الأمكنة يدفعان المتحادثَين إلى البوح بأفضل ما عندهما، وهو في المناسبة لا يحبّذ التحدث مع أكثر من شخص واحد لأن تعدد المشاركين يُغرق الكلام في العموميات المتعارف عليها. تمتعنا بالصمت

طويلاً قبل أن يخبرني أن صاحبة "بيريت – سور – مير" لا تزال جالسة في البهو لكن المكان يفقد نكهته ويتضاءل عدد الصحافيين الذين يقصدونه. فهو يراه فندق حرب، إذا هدأت الأحوال كما هي اليوم، خسر روّاده الأجانب من عشاق المدن الجريحة. كان الشخص الوحيد الذي يمكنني إخباره عن متاعبي الزوجية فقال إنني مثله غير مؤهّل للزواج واقترح عليّ التفكير في مخرج من المأزق الذي نصبته لنفسي: "الحياة في حد ذاتها فخّ محكم فكيف إذا أضفت إليها الزواج؟"

أخبرته عن شكوكي في سلوك زوجتي، بدا كأنه كان يتوقع ذلك فتطوّع لمراقبتها. انتظرها أياماً متتالية على الرصيف المقابل للمدرسة راصداً حركتها، ورجع بالخلاصة أنها مغرمة بشخص آخر يرافقها كل يوم عند خروجها من المبنى. ارتحت لِما عاد به، إنها هزيمة تُخرج حياتي من رتابتها الداكنة. نصحني مجدداً بتركها: "ستأتيك يوماً وتقول لك إنها حامل وأنت تعرف أنك لم تقربها منذ أشهر عدة".

أخبرته أنني لا أهتم بالأبوّة ولا أشعر بالغيرة، لم أشعر بها مرة في حياتي بل كأن هذا الرجل الذي تلتقي به عند خروجها من المدرسة يريحني من عبء لا أرغب في تحمّله. حتى أن خيانتها تثيرني أحياناً وتجعلني أرغب في معاشرتها في إحدى ومضات النهار. لم أنتبه أنني مسؤول أيضاً عما وصلنا إليه فهي مقتنعة بجمالها المثير واقترنت برجل وجد لها مكاناً في لوحات الميتولوجيا الإغريقية لكنها لا تحرّك فيه ساكناً. حتى بالنسبة إلى أستاذة الفلسفة التي كانت تحضّر أطروحة حول الأخلاقيات في مؤلفات شوبنهاور، فإن برودتي كانت بمنزلة إهانة لا يمكنها السكوت عنها.

ارتحت من التدريس، عدت إلى محاولات الكتابة فرسمت في ذهني، وفي ذهني فقط، أنا المتزوج حديثاً، ملامح شخصية شاب يعيش وحده في الطابق العلوي للبيت العائلي، لا يفتح بابه لأحد، يرفعون له الأكل بالسلّة. يتبارى بالشطرنج ضد برنامج الحاسوب "ديب بلو" الذي لا يُغلب، لا يفوز بأي جولة، لا يتوقف عن المحاولة ويملأ جدران غرفته برسوم لسيزيف يدفع صخرته إلى قمة الجبل قبل أن تعود فتنحدر نزولاً. أخطط للكتابة ولا أكتب، جميع الشخصيات التي تخيّلتها ذكور، شبان وخوارج، لا صديقة لهم ولا عشير، يعيشون عزلة اختيارية. كنت قادراً على رسمهم بألوان ثيابهم وتفاصيلهم، لكن مطبّات حياتي المتواصلة كانت تمنعني من التفرغ لصياغتهم في جمل عربية ترضي فصاحتي فبقيت مشاريعي مسوّدات خيالية مؤجّلة.

أمضي ساعات في المكتبة، أستعيد غرامي الأول، أشتري المزيد من الكتب من بينها طبعات جديدة لمؤلفات قديمة حتى فاضت عنها غرفتي. وفي يوم، عثرت فوق إحدى رفوف "المكتبة العربية" على ألبوم يضمّ صوراً جوية ملوّنة لأنحاء من البلاد، جبلاً وساحلاً، نشرته دائرة الشؤون الجغرافية في الجيش. تصفحته فوقعت على صورة لبلدتي يظهر فيها بكل وضوح، من السماء، عمرانُها ونهرها وبساتينها وكنيستاها وشوارعها الصغيرة، حتى أنني تعرفت بسهولة على البيوت التي تنقّلنا بينها ورأيت المقبرة حيث واريت أمّي الثرى. أصابني حنين لم أكن أنتظره وكنت لا أزال أتذكّر خروجي فرحاً منها وإطلاقي صرخة الحريّة نحو السماء. موت أمّي صالحني مع بلدتي التي لا يحبها أحد. اشتريت الكتاب وحملته إلى البيت.

قررتُ المواجهة، كنت أسعى إلى القتال. وضعت طاولة كبيرة وسط الصالون الفارغ وفتحت الكتاب على صفحة بلدتنا فوقها. حذّرت زوجتي من المسّ بأي شيء فرفعت كتفيها ولم تجب، أدارت ظهرها ودخلت إلى غرفتها علامة على رفضها. سأبني مجسّماً لبلدتي نكاية بها. درت على باعة الخردوات أشتري مناشير ومساطر وأخشاباً وعبوات دهان من كل لون، ومسامير من كل قياس، ومطارق، ومفكّات وموادّ لاصقة من كل نوع، كما عثرت على قوالب طوب صغيرة لتركيب قرميد السطوح لبعض بيوت الوجهاء القديمة المشيّدة بالحجر. مع الشروع في التنفيذ، احتجت إلى شخوص لمشاة، وسيارات، وجرار زراعي، وشاحنات، وصليب لقبة الكنيسة، وورق شفاف مائل لونه إلى الزرقة لتجسيد ماء النهر. بنيت بأكياس من الرمل التلّة التي تقف فوقها البلدة، كما حاولت صنع الناعورة التي تدور على مهل قرب أحد المقاهي وكانت الفرجة الوحيدة التي يقصدنا من أجلها زوار من خارج البلدة وقد استغرقت مني أسبوعاً كاملاً. فرشت الأرض عشباً اصطناعياً ورسمت فيها النهر وسيّجت حوله البساتين التي كان أصحابها لا يتنازلون عن شبر منها مهما حدث، ويحرصون عليها حرصهم على أولادهم. زرعتها توتاً وزيتوناً، فتحت الطرقات والأزقة كما أعرفها، تفننت في تعمير الحيّ القديم حيث تتلاصق المحلات وفق ما يسمّى الجدار "البغدادي"، أي الحائط المشترك للجيران المتلاصقين. ووصلت إلى بيوتنا التي انتقلنا بينها، كنت أمضي أياماً بطولها ألصق وأنشر وأقيس، لا أشعر بمرور الوقت، يطلع عليّ الضوء وأنا لا أزال أعمل على المجسم. أستدلّ على المدرسة الثانوية التي كانت تفصل بين المتقاتلين، وعلى الملحمة التي قتل صاحبها فيها أمام ذبيحته وعلى محلّ بيع الأقمشة والأزرار الذي كانت ترمقني منه الفتاة صاحبة الصوت

الذكوري بنظرات حارقة، وبيت قريب أمّي، أستاذ الرياضيات الذي انقطعت أخباره عنّا في مستشفى الأمراض العقلية الذي لم أستدلّ عليه رغم ما قيل عن أنه موجود في الضاحية الشرقية، هنا ربما في جوار بيتنا الجديد. حتى إنني وجدت طريقة لتجسيد الساعة الناطقة في برج الكنيسة، التي تبرّع بها مغترب من البلدة.

خرجت يوماً لزيارة والدي وخالتي فلم أجدهما، جلست في المقعد حيث كانت تجلس أمّي وانتظرت حدوث أمر ما يعيدني إليها فوصلت خالتي وضمتني وعانقتني بشغف لم أتوقّعه. إنها امرأة البيت الآن، تريدني أن أبقى للغداء لكن صوتاً ملحّاً كان يناديني للعودة. عدت فلم أجد زوجتي بل وجدت البلدة ركاماً، لم تبقِ تفصيلاً على حاله، لم تترك شيئاً صالحاً. لا بدّ أنها توقفت عند كل قطعة، فكسرّتها بالمطارق أو مزّقتها بالمقصّات ورمت كل ما كان قائماً على الطاولة أرضاً. تخيّلت مشهد العنف والانتقام هذا فانتظرتها والعصا بيدي أداعب قبضتها.

هبط الليل وبقيت واقفاً في العتمة مستنفراً لا أطيق الجلوس ولا أضيء مصباحاً، تصلني أصوات محركات السيارات ومناداة الجيران حتى سمعت خربشة المفتاح في الباب فتأهبت. دخلت، أضاءت النور في الصالون ولم تلقِ التحية، مرت من أمامي بكعبها العالي وهي تتفادى الدوس على بقايا المجسّم. ضربتها بكل ما أوتيت من عزم، صرخت كالحيوان الجريح، سددت لها ضربة ثانية فانكسرت ذراعها في مكانين ووقعت على وجهها فتهشّم فوق كل تلك المواد الحادة الجارحة وتضرّج بالدماء.

اتصلتُ بـ"الصليب الأحمر" بينما كانت ممددة تئنّ من الألم وإذا تلفّظت بشيء فتقول إنني أسوأ ما حدث لها في حياتها لأنّني ملاك الشرّ وفارس الأبوكاليبس، انتزعتها بالإغراء من عزلتها عن الرجال كي أفتك بها. كنا قادرين في تلك

اللحظة على استئناف نقاشنا الفلسفي لو لم يدخل المسعفون وينقلوها إلى المستشفى وهي تصرخ بشدة كلما حرّكت يدها. لم أفرّ إلى أي مكان، بقيت في البيت أنتظر ما ستؤول إليه الأمور جالساً أرضاً، ظهري متكئ على الجدار ورأسي بين يديّ. قُرع الباب في الساعة التي يغرّد فيها البلبل في شجرة الصنوبر فيوقظ معه النهار، دخل عليّ ضابط من أمن الدولة يرافقه عنصران. قالوا إن هناك بلاغ بحثٍ وتحرٍّ بحقي، وضعوا الأصفاد في يديّ واقتادوني صامتين إلى سيارة الجيب العسكرية المركونة في الجوار. أتذكر أنني لم أكن مستاء مما سيحدث لي وأن الهواء كان عليلاً فجر ذلك اليوم.

السويداء

التقيت في نظارة السجن بأربعة أشخاص تعاقبوا على زيارتي خلال يومين.

أولهم قاضي التحقيق الذي جلس إلى المكتب وطلب مني الوقوف طوال الاستجواب. يتوجه إليّ بالكلام لكنه لا يتطلّع ناحيتي. يشعل سيجارة "لاكي سترايك" ما إن يطفئ أختها في منفضة امتلأت عن آخرها، كان شبان البلدة يفضّلون تلك السجائر الأميركية ويضعونها في جيب قميص الحرير الشفّاف، والمعوزون من بينهم كانوا يكتفون بشراء ثلاث لفافات يقسّطون إشعالها طوال اليوم، كل ذلك لإغراء الفتيات مع فائض من "البريانتين" لتلميع الشعر. بدأ الحوار مع القاضي لطيفاً، قال إنه يعرف بلدتي وأطباع أهلها الصعبة وسألني إن كانوا ما زالوا على جري عادتهم في الثأر وتوجيه الشتائم القاسية، وأرفق ذلك بمحاولة فاشلة لتقليد مسبّة تطاول الأم والأموات مع تلميحات جنسية.

بعد دقائق، استعاد لهجته الجديّة وقال بابتسامة عصبية ساخرة: "تعتقد أن الدولة عاجزة والبلد سائب، وتطمئن نفسك أنك ارتكبت ما ارتكبته والعدالة آخر من يعلم؟"

كأنه كان يكمل معي سجالاً بدأه مع آخرين: "كلّا، يا أستاذ"، يجيب وأنا لم أتفوّه بكلمة واحدة، "الدولة تكتب وتخبّئ لكنها لا تتلف".

جذب ملفاً رمادياً نحوه وفتحه وهو ينظر إليّ بدلاً من أن يتفحّص صفحاته. انتبهت عندئذ أنه أحوَل ولن أتمكن من متابعة نظراته وهو يقرأ وينظر إليّ في الوقت نفسه: "أنت متهم بمغادرة البلاد خلسة والالتحاق بتنظيم فلسطيني مسلّح في

وادي الأردن حيث انتهى بك الأمر أن تسللت إلى جوار إحدى المستوطنات الإسرائيلية لكنك سُرّحت بسبب خوفك من المواجهة مع جنود الاحتلال".

ابتسمت لكنني لم أصحح له فأكمل: "الانتماء إلى منظمة ثورية محظورة في بيروت تحت اسم 'التروتسكيين العرب'".

إنها المرة الأولى التي يسمع قاضي التحقيق بهذه العصابة التي حملَت السلاح وشاركَت في الحرب الأهلية، وسألني إن كان تروتسكي شخصاً موجوداً أم من بنات أفكارنا فأجبته أننا اخترعناه لما في الاسم من رنّة موسيقية.

أكمل ما جاء في الملفّ: "حاولتم اغتيال أحد أصحاب المصارف، وجاء في اعترافات لاحقة أنك من وضعت العبوة المتفجرة تحت سيارته: محاولة قتل عمد واضحة المعالم، مشاركة لوجستية في مشاريع اغتيال شخصيات أخرى واليوم محاولة قتل زوجتك عن سابق تصوّر وتصميم".

وختمها منتصراً: "يبطل مفعول العفو العام الذي صدر مع نهاية الحرب الأهلية إذا ارتكب المستفيد منه جرماً لاحقاً لهذا العفو، وهذا ما ينطبق عليك".

كان يصفّي بي حساباته مع الذين لم تطاولهم يد العدالة وهم كثر. اعتقد أنه يخيفني لكنه لم يفلح سوى في إرباكي بسبب هذا الحوَل الفاضح في عينيه.

حضر المحامي في اليوم التالي. كان نظيفاً لا يتخلّى عن ربطة العنق الزاهية وكانت غرفة النظارة متّسخة. بقي واقفاً بعد أن لمس الكرسي بإصبعه فوجد الغبار عليه سميكاً، بدا طوال المقابلة كأنه يشتمّ رائحة كريهة أشبعها قاضي التحقيق بدخان سجائره. هو ابن صاحب المحل حيث يعمل والدي الذي طلب منه أن يتوكّل عنّي. ينتعل حذاء بنيّاً مع شريط، أفضل ما يباع في متجر والده على الأرجح، كما أنه متخصص في القضايا الجنائية. شجعني على إخباره بالحقيقة

وقال إن سرّي محفوظ معه فأجبته أنه ليس لديّ أسرار. قال إنه درس قضيتي ويمكن ادعاء جريمة الشرف إذا قدّمنا شهوداً على ارتكاب المرأة الخيانة الزوجية وقد بلغ أسماع المحامي أن زوجتي فعلتها. كان شاهدي على خيانتها حاضراً، شاهد زفافي الذي قد يتحوّل طوعاً إلى شاهد محاكمتي. أخرج المحامي قانون العقوبات من حقيبته وشرع يقرأ لي المواد المخففة للعقوبة في جرائم الشرف. قاطعته وقلت إن زوجتي لم ترتكب أي خطأ، لم أعد أتحمّل وجودها معي تحت سقف واحد، اختلفنا على اختيار أثاث الصالون، أنا أفضّل مقاعد الجلد الشسترفيلد وهي تريدها مبطّنة بالقماش فضربتها، هذا كل ما في الأمر. في اللقاء التالي معه، لم يجلس، ازداد اشمئزازه من المكان، دام حوارنا دقائق، نظر إليّ طويلاً ثم سألني إن كنت راغباً في البقاء في السجن حتى لو أتيح لي الخروج منه كأنه قرأ دوافعي الخفيّة، فقلت: ”نعم“.

ختم بالقول: ”أخرجك بعد ثلاثة أشهر إذا تعاونت معي“.

توقفت عن الردّ على أسئلته فرفع كتفيه وأقفل حقيبته الجلد الثمينة، البنيّة من لون حذائه، وغادر نظيفاً من دون رجعة بعد أن أبطل وكالته عنّي. عند خروجه، سيرمي في سلّة المهملات الأوراق التي سجّل عليها ملاحظاته حول قضيتي.

والدي أيضاً لم يتأخر. وصل قلقاً متعرّقاً ودائرتان داكنتان مرسومتان تحت إبطيه. يحمل معه علبة من الحلوى الشرقية وزجاجة ماء معدنية يشرب منها جرعات صغيرة يهدّئ بها توتره. اعتقدت أنه منفعل بسبب ما ورّطت نفسي فيه، كما أخبره المحامي عن عنادي وأن القاضي قد يحكم عليّ تلقائياً بالعقوبة القصوى لمجرد أنني لم أعيّن محامياً. كنا نتحادث، يسألني كيف سأتصرّف محاولاً إرشادي وأنا أبعده عن قضيتي. سألته عن الأفريقي الصغير فشعرت من جوابه المتردد أن

الفتى عبء عليه. يحكي وهو غائب، يريد أن يقول شيئاً ثم يتراجع، سكتُّ كي أشجعه على الكلام فأفرج عن سرّه. لا يجوز أن يقيم مع خالتي وابنها في شقة واحدة، ستصل الأخبار إلى أهل البلدة المتزمتين وحتى الجيران هنا في بيروت لا يتقبّلون الفكرة. من باب السترة، يفضل أن يتزوجا ويريد أن يطلب موافقتي، مضيفاً أنها كانت وصية والدتي قبل وفاتها، ردّدتها مرتين أمام شقيقتها. قال ما قاله بسرعة ومن دون توقف كأنه تمرّن مراراً على تصريحه هذا.

باغتني، حزنتُ فغرقنا في صمت طويل، أنظر إلى سقف الغرفة وإلى التشقق الذي فعلته الرطوبة بالدهان الرمادي الذي تُطلى به جميع المؤسسات الحكومية، المدارس والوزارات والسجون. والدي يستر حرَجه بقراءة لا تتوقف للكتابات الصغيرة الملصقة على زجاجة الماء المعدنية والتي تفصّل العناصر الداخلة في تكوينها، البيكاربونات والكالسيوم وغيرهما. قطع علينا الحارس الصمت والحرج لما دخل معلناً انتهاء وقت المقابلة فغادر والدي الغرفة من دون أن ينظر خلفه. صرنا كالغرباء.

الزيارة الأخيرة كانت من صديقي المقيم الدائم في "بيريت – سور – مير". لم يذكّرني بما كان قد حذّرني منه في مغامرة زواجي بل أخبرني أنه مريض ولن يصمد طويلاً. لم يبلغ أحداً، لا ابنه في واشنطن ولا زوجته التي يجهل مكان إقامتها. بدأت تتحرك معه أوجاع العظام وسوف تتفاقم كما أنذره الطبيب وقريباً سيبدأ تناول المسكنات، وسيعيش على حقن المورفين. سيتدبّر أمره في الأيام المقبلة. فهمت قصده من عبارة "سأتدبّر أمري" ورددت له التحية فلم أحاول ثنيه، كان قد أخبرني بنيّته هذه في أول لقاء لي معه. وقف عن كرسيه وقال بلهجة جديّة: "عندما ستخرج من السجن، وسيكون ذلك قريباً لأن الحكم في هذه المسائل

العائلية يكون عادة مخففاً، ستحمل إلى قبري باقة ورد أبيض، عشرين وردة لا أكثر، تعرّج بعدها على الفندق حيث تركت لك حقيبة جلد هذا مفتاحها، تأخذها وتلقي التحية على صاحبة المكان فتشمر أنفها في وجهك علامة على أنها لا تزال تكنّ لك مشاعر متّقدة وتتذكّر خلواتكما معاً في الطابق الأول لكنها تحاول المحافظة على كرامتها. بقي عليّ أن أختار مدفني وأدفع ثمنه، المتر المربّع في مقبرة الإنجيليين أغلى من الأراضي القليلة المخصصة للبناء في العاصمة. وجد لي أحد السماسرة مكاناً مطلاً على البحر تظلله صفصافة مستحية، وقد اشترينا تمثالاً لملاك مجنّح من الرخام الأبيض. زرت المكان مراراً وأشرفت على كل شيء".

قبّلني صديقي البروتستانتي في جبهتي مرتين، سألته وأنا مغمض العينين كيف سيقدم على فعلته فلم أسمع جوابه، ولما فتحت عينيّ من جديد، كان قد غادر، خرج من غرفة المقابلات في نظارة قصر العدل في سراي بعبدا واختفى عن ناظريّ إلى الأبد.

تزوّج والدي سرّاً في كنيسة صغيرة من الضواحي الشمالية للعاصمة، كان زفافاً حزيناً على ما يبدو، حضر فقط صديق له، يعرفه من زمن إضرابات عمال الأحذية، وابن خالتي الذي أخبرني في ما بعد أن والدته ارتدت ثوباً كحليّاً، ووالدي وضع ربطة عنق رمادية، ألوان "فكّ الحداد" على والدتي. استعانوا بالكاهن كي يجد لهم في رعيّته سيّدة تشهد على عقد قرانهما، ذهب يبحث عنها وتركهم أكثر من ساعة جالسين في الكنيسة صامتين حتى عاد برفقة إحدى بنات الأخوية.

انتحر صديقي، حقن نفسه بالسمّ وجلس ينتظر موته وهو يراقب من نافذة غرفة الفندق العابرين في شارع أرمينيا المزدحم. نادى على صديق له، رآه خارجاً من أحد المطاعم فتبادلا الاطمئنان إلى صحتيهما قبل أن يتفاعل السمّ في دمه فيسقط أرضاً كما وجدوه ممدداً نائماً على وجهه وأسلم الروح.

عادت زوجتي إلى مساكنة أمّها بعد أن أعطاها الطبيب تقريراً بالتوقف عن العمل ثلاثة أشهر قابلة للتجديد. استأجرت عاملَين أخرجا كتبي ورمياها في مكبّ كبير للنفايات، وطلبت منهما أيضاً تمزيق غالبية مقتنياتي قطعاً صغيرة كأنهما يقطّعانني كي لا يبقى مني أثرٌ. كانت القحباء تدرك في ثأرها وتخلصها من كتبي أنها تحرق خطّ دفاعي الأخير.

طلب لي المدعي العام عقوبة السجن خمس سنوات وهو يتوسع في جريمتي بمطالعة إنشائية مليئة بالاستعارات وبمقتطفات من **رسالة القديس بولس** حول الزواج كوني مسيحياً، أعطاني القاضي الكلام فشكرت المدّعي العام ومحامي الادّعاء وقلت إنه ليس لديّ ما أضيفه على كلامهما الفصيح. نظر إليّ القاضي باستغراب شديد فشعرت بالشفقة في عينيه. ”أنت تحمل إجازة من أفضل جامعات بيروت“، قال، ”وعلّمت في أفضل مدارسها ولا بدّ أن تشرح سبب اعتدائك العنيف على زوجتك“. أخبرته كيف أنها خرّبت بلدتي ولم تبقِ منها أثراً وأنها لا تحب مقاعد الجلد، ولا تريد تعليق لوحات على الجدران. كانت أذواقنا مختلفة في الأكل والألوان وساعة الخلود إلى النوم. لم يفهم القاضي ما كنت أعنيه فحكمني سنتين ونصف السنة فقط، سعيت إليها بنفسي، انتظرت زوجتي ساعات قبل أن أضربها ولم يبرد دمي، بل برد دمي لكنني كنت راغباً في ارتكاب ما يضعضع حياتي. تذكّرت عصا السنديان التي حطّم بها قريب أمّي في البلدة، أستاذ

الرياضيات، مرايا البيت وكسّر كل ما هو قابل للكسر. تركت تعليم المراهقين لغة فولتير في مدرسة ''الراعي الصالح''، فجأة أدركت تفاهة ما كنت أفعله هناك. انتهى زواجي ما إن بدأ، وافقت على الطلاق، وقّعت على الأوراق التي جاءني بها محامي زوجتي بعد شهر على الحادثة من دون أن أقرأها. قال إن زوجتي تعاني كثيراً وأُجريت لها عمليات جراحية عدة فلم ينتزع مني شعوراً بالشفقة. وقّعتُ، لكنني وضعت شرطاً واحداً، أن تعيد إليّ صورتي مع عمتي والكلب فوكس المعلّقة في مطبخ بيتنا الزوجي المشؤوم ورسم عنتر وعبلة. حمل المحامي الصورتين بعد أيام إلى شقة أهلي حيث استعدتهما آخر محكوميتي. خرجت معلمة الفلسفة من حياتي، هي وأخلاقيات شوبنهاور والميراث الإغريقي في الحضارة الحديثة وأقاربها من مزارعي التبغ لجهة أمها وأصحاب المهن الصغيرة من أهل المدينة. علمت لاحقاً أنها ارتدت التشادور والتحقت بجمعية إسلامية بعد أن تخلّت عن دراسة الفلسفة ''العلمانية'' كما صارت تسمّيها، واهتمت بعلوم الدين فصارت تلقي المحاضرات حول مزايا الرسول وأهل البيت في مجموعة من ''الأخوات'' المنتسبات إلى ''جمعية الصالحات'' التي تقدّم العون إلى المجاهدين.

أصدر القاضي حكمه فنقلوني في اليوم نفسه إلى سجن قريب، ردهتين واسعتين مكتظتين مع زنزانتين انفراديتين للمعاقبين الذين يتحادثون عالياً مع زملائهم في ''القاووش''. فور دخولي سأل النزلاء عن سبب حبسي ففرحوا بخبر محاولتي قتل زوجتي، صفّقوا لي وتأسفوا لأنّني لم أوفّق، أي لم أنجح في قتلها. اشتمّ المعتادون الحبسَ رائحتي، صنّفوني من هندامي، ونصحني متخصص من بينهم بسرقة الهواتف والأدوات الكهربائية، كان في زيارته الثالثة إلى السجن، بأن احتفظ بالمال النقدي في جيبي. كل شيء هنا يباع ويشترى، من السجائر الأميركية إلى

الضبّاط. أكلت من وجبات السجن التي يصعب ابتلاعها في الوقت الذي كان معي مال يسمح لي بأن أوصي به على الأكل من الخارج. لم أقتنِ فراشاً جديداً، ورثت واحداً عن سجين سابق فتسبب لي في حكّة أدمتني. وحدهما، والدي وخالتي، طلبا مقابلتي فلم أخرج للقائهما رغم تكرار الرقيب مناداته لي. تركا لي الحلويات فوزّعتها على من حولي ولم أذق طعمها. عاودا المحاولة ثم أقلعا عن زيارة السجن. كان للمحتجزين زوجات وأهل يطمئنّون إليهم ويحملون إليهم الهدايا البسيطة والسجائر، والساكنات في الجوار كنّ يأتين لأزواجهن بالغداء ساخناً. ثلاثة منا فقط لم يسأل عنهم أحد.

الأول سوريّ كرديّ استيقظ فجراً، حمل كيس حاجياته من قرية تلّ الذهب في جوار الحسكة ومشى من دون أن يودّع أحداً من أهل بيته الغارقين في سباتهم. نام في الوعر مع الكلاب الشاردة، حمل حجارة الباطون على ظهره في ورش للبناء في ضواحي دمشق مقابل قوته اليومي. حفظ عن ظهر قلب قصائد لمحمد الماغوط كان يخشى ترددها عالياً في بلاده، كما قال، وكان مقصده الأخير بيروت. لم يرَ منها سوى غرفة صغيرة استأجرها في الطابق الخامس من دون مصعد في حيّ الجامعة العربية فوجد فيها متفجرات بدا على الأرجح أنها من مخلّفات ترسانة "منظمة التحرير الفلسطينية" التي كان مركزها الرئيسي في الجوار. حملها ليسلّمها لقوى الأمن فألقي القبض عليه واتّهم بحيازتها من دون أن يصغِي أحد إلى روايته، وهو ينتظر محاكمته. أمضيت معه مدة كان يكرر خلالها كل يوم قصيدة محمود درويش: "ليس للكرديّ إلّا الريح"، ثم نقلوه إلى مكان آخر فأعطيته عند افتراقنا بعض المال فضمّني وقال إنني الشيء الجميل الوحيد الذي صادفه منذ ترك بلدة تلّ الذهب من أعمال الحسكة.

الثاني لبناني ليس له سوى أمّ أعماها مرض السكّري، وكانا يعيشان من سرقته إطارات ومرايا السيارات ليلاً في الجزء الشرقي من العاصمة وبيعها صباحاً في الجزء الغربي لتجّار دواليب وقطع غيار مستعملة. خطؤه أنه عاد إلى الشارع نفسه مرة ثانية فاعتقل وحُكم عليه بالسجن سنة ونصف السنة وصارت أمّه وحيدة. طُردت من غرفتها وباتت تسكن تحت الدرج يشفق عليها فعلة الخير يبقونها على قيد الحياة بالخبز والمعلبات. تملك سوار ذهب واحد تحفظه لليوم الأخير، اقترب منها شخص لم تدرِ به وانتزعه من يدها بخفة وهرب. كل ذلك على ذمّة السجين.

وهناك الثالث، أنا.

نادوا عليّ مرة لمقابلة كاهن يلبس ثياباً مدنية ويضع ياقة بيضاء. غالبية المساجين كانوا من المسلمين فاستدلّ الكاهن على المسيحيين من أسمائهم. سألني إن كنت بحاجة إلى كتاب **الإنجيل** لأضعه تحت مخدتي وبدأ عظته معي بأنني كبير الرسل ويجب أن أكون مثالاً للآخرين وقائداً لهم وأنه يعوّل عليّ لنشر كلمة الله بين هؤلاء التعيسين وأن نكون على قلّتنا قدوة أمام المسلمين.

لم أرتح لكلامه، فقررت إغاظته، وقلت له ألا يتّكل عليّ لأنّني أشهرت إسلامي على مسمع من الجميع هنا، وتلوت الشهادتين قبل أسبوع، وإنني سأرخي لحيتي قريباً وألبس رداء أبيضَ وأجلس في الزاوية وأكتفي بـ**القرآن** والسيرة النبوية. ارتجلت الكذبة المفصّلة فشطبني من لوائحه.

نقلوني إلى سجون أخرى لكل منها رائحة، رائحة دورات المياه نهاراً ورائحة أقدام السجين الممدد إلى جانبك ليلاً. تعرفت إلى كل أصناف المحكومين، كنت أوزع عليهم علب السجائر وأوراق اليانصيب ودفعت عن بعضهم المبلغ المطلوب

لخروجهم النهائي إلى الحرية، وكنت أشعر بهم ليلاً يقتربون منّي ويمدّون أيديهم لسحب المال من جيبي. أنظر في عيونهم صباحاً فأعرف من هو المرتكب وأبتسم في وجهه. كانوا يكتبون نتفاً من أسرار حياتهم على الجدران، أسماء نساء ورسوم قلوب، حكماً حول اللئيم والكريم، آيات قرآنية وتوعّداً بالثأر من أناس لا يسمّونهم.

كانوا يحاولون سرقتي ويحبونني، مشاعرهم غليظة، تحادثت معهم وفتحوا لي قلوبهم. كان هؤلاء الأكثر رثاثة الذين لم يقصدوا المدرسة يوماً، أياديهم خشنة وأظفارهم سوداء من العمل في ورش تصليح السيارات، أجسادهم متعبة كأنهم يستريحون في السجن الذي يشبه حياتهم. يتحملون مرور الوقت البطيء خلافاً لمن كتبوا شيكات من دون رصيد وتمتعوا يوماً بالمال والرفاهية أو من زوّروا شهادات ثانوية ويعانون من ثقل الساعات لأنهم يعدون أنفسهم بمشاريع حياة خارج السجن.

لم أتذمّر كوني سجيناً شبه متطوع، ومع ذلك، كانت السويداء تضربني عند ساعات العصر. أسوأ أوقات السجن كان مغيب الشمس فأمضي النزهة في الردهة الخلفية أعدّ خطواتي ذهاباً وإياباً بإيقاع عسكري، أضرب حذائي بقوة في إسفلت الفناء فيضجّ رأسي عند كل خطوة ويمنعني عن التفكير وهكذا يمرّ هذا الغسق بأقلّ كلفة. مع هبوط الظلام، نعود إلى قاعة السجن المضاءة بمصباح كهربائي وحيد يتدلّى بشريط من سقف السجن، زجاجه متّسخ بالذباب الميّت، وبدلاً من أن يفرج عن عبوس المحبوسين يخلق نوره الضعيف حزناً عميقاً. كان أحدنا يختار تلك اللحظة بالذات كل يوم لكي يلطم رأسه بيديه، ثم تطوّر معه الأمر فصار يضرب رأسه بالجدار بقوة اعتقد بعضهم في البداية أنها نوع من هزّة أرضية خفيفة. يضرب رأسه وهو يناجي النبي محمد والإمام الحسين في حين أن زميلاً له

يئنّ ببطء لكن بانتظام يسبب الإزعاج للسجناء أكثر من الآخر، فيثير حفيظتهم ويبدؤون الصراخ لإسكاته، فيحضر حرّاس السجن ويخرجونه لنزهة إضافية في ضوء القمر لعلّه يهدأ.

ليل السجن كان حكاية أخرى، ولم يكن إطفاء المصباح اللعين عند العاشرة على يد ''شاويش'' الغرفة يشجع أحداً على النوم. كانت الثرثرة تستمر، وإطلاق الريح المتقطّع عالياً وبإيقاعات مختلفة مستمراً أيضاً وكذلك تصعيد التأوهات كلما استدار أحدهم من كتف إلى كتف في نومته. كان بيننا أرمني ممدد جواري يسعى إلى النوم بأن يعدد إلى ما لا نهاية أسماء لاعبي فريق ''الهومنتمن'' لكرة القدم إضافة إلى لاعبي الاحتياط: اسادور، افيديس، بيدروس، غارابيد، هوفزيب، ماريديك... حتى يغيب في أحلامه. في الصباح، كان مرحاً، علّمني صناعة البسطرما وتحضير الكباب الحلبي وأخبرني أنه موظّف في شركة كهرباء لبنان يتسلّق الأعمدة ويمدّ الشرائط أحياناً ويختلسها أحياناً أخرى لأن نحاسها غالي الثمن. وشى به زملاء له في الشركة وكان يحكي ويخلط بانتظام بين المذكّر والمؤنّث.

كانت الليالي الحارة لا تنتهي، ولا يهدأ ''القاووش'' قبل الرابعة صباحاً إلا إذا صحا أحدهم مذعوراً من كابوس رأى فيه خصماً له يدفعه إلى هاوية بئر عميق فيقاوم، لا يقع بل يستيقظ جالساً متعرّقاً.

ثم بدأت المواجهات في الخارج، في شوارع العاصمة بين أتباع المذهبين السنّي والشيعي بعد عقدين من النزاع انحصر في المواجهة بين المسيحيين والمسلمين. إطلاق نار لم يعرف مرة كيف بدأ يليه إشعال الدواليب وقطع الطرقات فكان الصدى يخترق أسوار السجن: مشادات بين المحبوسين وتوعّد بتصفية الحساب

عند الخروج، وصار المسيحيون يلعبون فيها دور المصلحين، وقد تدخلت مرة في شرح طويل بصفتي ”متعلّماً“ أخبرت فيه الشيعة أن السنّة يقدّسون عليّ بن أبي طالب والحسين وطمأنت السنّة إلى أن الشيعة مثلهم من أتباع رسول الله، وأن الأحداث التي ينقسمون حولها تعود في كل حال إلى أكثر من ألف وأربعمئة عام. هدؤوا لبعض الوقت لكن قاعة السجن الكبيرة شهدت انقساماً حاداً إذ تجمّع أتباع المذهبين الإسلاميين من سارقي المتاجر ومغتصبي القصّار والمتاجرين بالمخدرات، كلّ في جهة من ”القاووش“، وبقوا يراهنون معاً على سباق الخيل وعلى مباريات كرة القدم الأوروبية فيما القلة المسيحية من أمثالهم في الارتكابات تجمعت وسط القاعة. صار بعضهم ينادونني ”الحاج“، فيما لم تنطلِ معارفي في تاريخ الإسلام على الآخرين. كان بيننا رجلان درزيان مدانان بمحاولة قتل شقيقتهما في مسألة شرف عائلي عرفناهما من لهجتهما يجلسان منفردين يشربان المتّة ويتأسفان على إخفاقهما في محو العار الذي لحق بشقيقتهما أو الذي ألحقته عمداً بنفسها كما يقولان. ويتوعدان بأنهما سيكملان مهمتهما ما إن يفرج عنهما.

انفجر الانقسام مع اغتيال رئيس الوزراء فدار في قاعتنا عراك جماعي عند سماع النبأ التحم فيه الفريقان واختلط فيه التضارب بما تيسّر من قناني الماء والأحذية مع شتائم طاولت آل البيت من جهة والصحابة وخصوصاً عائشة وعثمان بن عفّان من الجهة المقابلة. كانت المشاجرات تهدأ وكلمة من هنا أو هناك تكفي لإعادة إشعالها حتى شهر أحدهم سكيناً لم يُعرف أين خبّأها طوال هذا الوقت، فتدخّل الحراس بأسلحتهم ونُقلت بعض الرؤوس الحامية من الطرفين إلى سجون أخرى.

لم ألتقِ ببريء واحد في السجن ولا بمدّعين للبراءة. كانوا يفاخرون بأعمالهم على نذالتها أحياناً. والتقيت بمن صار السجن بيته، يمضي عقوبته ثم يخرج إلى الحرية ليسارع إلى سرقة دراجة نارية أو التحرّش بعاملة منزل آسيوية، ما يعيده بسرعة إلى حيث كان لأنه أعجز عن تدبّر حياته في الخارج، فيتوسّل القضاة وقد صاروا من معارفه أن ينزلوا به عقوبة مديدة فيبتسمون ويلبّونه قدر الامكان. وصرت، في إقامتي بينهم، كاتب رسائلهم، كما كنت أفعل في سنوات مراهقتي في بلدتي مع الجيران. أسطّر اللوم لابنة لم تأتِ يوماً لزيارة والدها. يحكي الوالد ويبكي ويحاول إنزال دموعه على ورقة الرسالة، فيتجمع السجناء عليه حتى تسقط دمعة يطلب مني أن أكتب بجانبها: ''هذه دمعة والدك يا ابنتي''، فيضحك بعضهم ويغصّ آخرون من التأثر. أو يطلب سجين ثانٍ المال من أخيه الميسور والبخيل، ويتوجّه ثالث إلى زوجته، نختلي في زاوية ''القاووش'' أنا وإياه، لا يريد للآخرين أن يسمعوا تهديده لها: ''إذا بلغني مجدداً أنك تترددين إلى جارنا بائع الماء، إذا مرّ من أمام بيتنا، سأقتلك فور خروجي من السجن''.

لطّفت التهديد بالقتل لكنني عرفت لاحقاً أنه قتلها بعد إطلاق سراحه، دعاها إلى الخروج في نزهة إلى ضفة النهر وكان الربيع في أوله، تناولا الغداء، دخّن الزوج النرجيلة، وفي النهاية، أطلق عليها النار ورمى جثتها في النهر.

بعدها كتبت لهم الرسائل النصيّة القصيرة على هواتفهم الذكية وكانت قد دخلت السجن في السنة الأخيرة من عقوبتي. بضعة أشهر مشهودة حين ساهمت الآلة في إحلال الصمت في السجن، إذ كان النزلاء يمضون النهارات وأنوفهم في شاشات هواتفهم يلعبون ''السوليتير'' لقتل الوقت. ثم راح السجناء يتحادثون مع أقاربهم ومعارفهم ففقد السجن معناه، وتراجعت الزيارات التي كان يُستعاض عنها

بالثرثرة الهاتفية الطويلة التي تمتد ليلاً. المتكلم بصوت هامس يغازل صديقة يأمل أن تنتظره إلى حين خروجه إلى الحرية، والذي يرفع صوته مطالباً شركاء عملية التهريب بحصّته التي غفلوا عنها بعدما دخل السجن فهو الوحيد الذي تعرّض للعقاب ودفع عنهم الثمن... أو محادثة تبدأ هادئة وتتطور إلى الشتائم بصوت مرتفع.

أخيراً تمت مصادرة الهواتف ومُنع استخدامها ولو بقي تهريبها داخل السجن سهلاً مقابل مبلغ مرموق لتصبح الهدية الأغلى ثمناً. لم تفلح الدولة في استئصال الهاتف الجوّال من السجون، وكان من ينجح في حيازته يبقيه صامتاً كي لا ينكشف إلّا إذا سهى عن ذلك وأيقظ الجميع برنينه الصاخب ليلاً.

قبل انتهاء عقوبتي، ظهر خلف القضبان شاب هادئ يرتدي بذلة وربطة عنق لفت الأنظار كأنه خارج من أفلام التمييز العنصري الأميركية وإلى جانبه رقيب من عناصر السجن. هتف السجناء عند رؤيته لا لشيء سوى لأن لون جلدته أسود حاد. تغيّر، لم أدرك من هو إلا عندما ناداني الرقيب بالاسم كي أخرج للقائه فتعالى الصخب من حولي واضطررت عند نهوضي للتوجّه نحوه أن أعلن أن الشاب ابن خالتي. بدلاً من أن يهدأ المساجين، صار لهم في قرابتي معه سببٌ آخر لاشتداد الصراخ وإطلاق التلميحات المبطّنة تجاه خالتي التي لا بدّ أن الزنجي الذي أنجبت منه هذا الشاب أسعدها كثيراً في الفراش، وترافق ذلك مع الإشارات التصويرية المناسبة. توقفوا لما شعروا أنني لا أتقبّل كلامهم، وقد تبين أنهم يتشاركون نظرية عرقية جنسية لا أعرف من أين سقطت عليهم، واعتنقوها، وهي أن حظّ الرجل سينقلب إلى الأحسن إذا مارس الجنس مع زنجية، ويصحّ ذلك في المرأة البيضاء مع الزنجي أيضاً.

تحدثنا بالفرنسية بطلاقة، كان لطيفاً، كبر فجأة، ترك المدرسة لأنه لم يعد يحتمل سفاهة الطلاب. لم يكن حاقداً، سأل عن أحوالي ثم قال إنه لا يرتاح في البيت أيضاً ويريد الانتقال إلى مكان آخر. سألته أن ينتظر خروجي القريب فنبحث عن منزل ونسكن فيه معاً وقلت إنني أنا أيضاً لا أرغب حتى في زيارة بيت أهلي. لم يصدق أذنيه، وقال إنه في حال لم يقم معي في البيت نفسه، سوف يعد العدّة للرحيل إلى شاطئ العاج.

ياموسوكرو وتلّ الذهب

نادوا عليّ للخروج قبل الموعد الرسمي بثلاثة أشهر لحسن سلوكي. صرخ الرقيب اسمي بصوت لا يتناسب أبداً مع المسافة التي تفصلني عنه. ودّعني رفاق "القاووش" بنبرة صادقة وبالتصفيق كما استقبلوني: "مع السلامة، يا أستاذ، عساك لا تعود إلى هنا أبداً".

تبادلتُ القبل بحرارة مع الجميع لعلمنا بأن لا سبيل لاجتماعنا لاحقاً في الحياة الخارجية. تواعدت على اللقاء أنا والشاب الحزين الآتي من تلّ الذهب، قرب مدينة الحسكة، عند انتهاء عقوبته. قال إنه يجهل مدة هذه العقوبة ولا حتى سببها ولا يعرف في النتيجة متى تنتهي، فهو لم يَمثُل بعد أمام القاضي. استدعاني الضابط آمر السجن، فطلبت منه النظر في أمر الكردي لأنه مظلوم. مطّ شفتيه، سلمني أغراضي وذهبت في سبيلي، لم أطالب بالعصا فلحقني بها أحد رجال الأمن: "سلاح الجريمة! لا تكرر فعلتك، يبدو عليك أنك رجل مهذّب".

أول مالك بيت قصدته مع ابن خالتي لم يدعونا للدخول. كان لا يزال في ثياب النوم، خدّه الأيمن مغطى بصابون الحلاقة. سمعناه في الداخل قبل أن يفتح لنا، يشتم ويهدد، ولم يتأكد لنا وجود شخص آخر يتوجّه إليه بهذا الكلام الغليظ. نظر مليّاً إلى شريكي الجديد: "تستأجر الشقة له؟"

- كلا، لي وله.

لم يعجبه مزيج الأنواع فتظاهر بالأسف: ”هناك من سبقكم على استئجار البيت ودفع عربوناً البارحة“.

من الواضح أنه يكذب. أقفل الباب في وجهنا حتى قبل أن نستدير للمغادرة.

امرأة في متوسط العمر، لهجتها غريبة، مكحّلة، استجوبتنا. تريد معرفة أصلنا وفصلنا. سألتني إن كنت متزوّجاً. لم تصدّق أن ابن خالتي أسود، كامل السواد، ويحمل اسم أحد كبار الملائكة معتقدة أنه مجرد اسم مستعار. ذكرتني نظراتها الحارة بصاحبة ”بيريت – سور – مير“، أخبرتنا أنها تسكن وحدها في الطابق العلوي، يفتح الأشباح النوافذ ويدخلون عليها، وجودنا يسلّيها. أمسكتُ ابن خالتي من يده وابتعدنا، استنفدت طاقتي على تلبية رغبات النساء. قال لي رفيقي: ”لم تحبّها“.

فكان جوابي جاهزاً: ”لا أحبّهنّ، لم يعد لي شأن بهنّ بعد موت أمّي“.

كان المالك الثالث قليل الكلام، شاحب الوجه، لم يطرح علينا أسئلة بل سارع إلى توقيع عقد الإيجار وكان لديه منه نسخة جاهزة مع دفع ستة أشهر سلفاً. فهمنا سبب استعجاله بعدما أمضينا الليلة الأولى في الشقة المفروشة بأثاث عديم الذوق، مصنوع من الخشب الرخيص والقماش الخشن، بينما زيّن جدار غرفة الجلوس فيها بصورتين باخت ألوانهما لقلعة بعلبك وغابة الأرز. ينضح المكان بكآبة الشقق المفروشة، لا يترك القاطنون فيها أي أثر يدلّ على أذواقهم أو أمزجتهم، فيبقى وراءهم خواء يعصر القلب. منذ الليلة الأولى عرفنا أن المالك خدعنا، البناية تطلّ على الطريق السريع، طريق الخروج من بيروت باتجاه سهل البقاع ودمشق. لا تنقطع عنها أصوات محركات السيارات وشاحنات المحروقات والإسمنت ليل نهار. ضجيج متواصل يجعلك لا تنام إلّا منهكاً عند طلوع الفجر.

وجد رفيقي وظيفة بدوام نصفي في مكتب الاستعلامات في سفارة بلاده وكان هذا الآتي من ياموسكرو يرتاح لرفقتي مع أن أمه أرادت أن يبتعد عنّي: ”صحيح أنه ابن أختي وهو متعلّم لكنه يميل إلى العنف وقد أوقع نفسه في المشكلات“.

أخبرَته ماذا فعلت بزوجتي، كدت أقتلها، وكيف رفضتُ استقبالهما، هي وأبي، في السجن، كما سمعت عني أخباراً أخرى غريبة.

”عشرته صعبة ومتعبة“، قالت.

أما هو، فاستيقظ متأخراً في يوم عطلة وسألني فجأة بصوت متهدّج وهو يفرك عينيه: ”من أنا؟“ أي من هو. أخذني على حين غرّة فادّعيت أنني لم أفهم سؤاله كي أربح بعض الوقت. أخبرني عن رجل كان ينتظره عند باب المدرسة ساعة انتهاء الدوام في ياموسوكرو، ووصفه بأنه ”رجل أسود، طويل القامة“.

- كان يعطيني في كل لقاء كيساً من السكاكر الملوّنة والمارشميلو، يضع يده على رأسي ويختفي عند زاوية الشارع، لا يتفوّه بكلمة واحدة. أعتقد أن هذا هو والدي الحقيقي.

أضاف أن أمه، في المقابل، كانت تخرج من حقيبة يدها صورة رجل أبيض له شاربان، عابس، يشبه الرجال هنا. ”تقول إنه والدي وقد توفّي بنوبة قلبية. هذا كل ما أعرفه، كنت صغيراً ولم أنتبه كيف سيأتي أسود مثلي من زواج رجل وامرأة من البيض“.

كان يزورهم في البيت بعد وفاة الرجل صاحب الشاربين رجال بيض يعتقد أنهم أيضاً من لبنان. أمه تمنعه من مجالسة أي منهم وترسله إلى غرفته فور وصولهم. حرت كيف أتهرب من الإجابة فسألته متى يكمل الثمانية عشرة من العمر.

- بعد شهر.

فقلت له: ”أخبرك بعد شهر“.

رافقني في اليوم التالي إلى الفندق حيث أقمت طويلاً. استدلّلنا قبل ذلك على مقبرة الإنجيليين، هناك مدافن لجميع الطوائف في بيروت، سبع عشرة مقبرة. رشونا الحارس كي يسمح لنا بالدخول. فهو يعرف أبناء الطائفة جميعهم. لسنا منهم ويخاف السارقين. رافقنا لما وضعنا الورد الأبيض على ضريح صديقي، عشرون وردة تماماً، كما طلب، ثم انسحب. وجدنا إكليلاً واحداً من الزهر الاصطناعي مهدى من الشاب الرياضي البنية الذي كان يتردد عليه في ”بيريت- سور- مير“.

جلسنا في ظلّ شجرة الصفصاف فيما أصوات المدينة تخفت في الخارج. حُفر على بلاطة الرخام تحت الملاك الطائر قولٌ لـ ت. س. إليوت اقتطفه من قصيدة ”الأرض اليباب“:

أي جذور تتشبث، أي أغصان تنمو في هذا الخراب الصخري، يا ابن الانسان؟
لا تستطيع أن تجيب أو تخمّن فأنت لا تعرف سوى كومة من الصور المحطّمة.

أخبرت ابن خالتي أن الميت من جيل والدي، ولو خيّرت بينهما، لاخترته. وأخبرته أن كثراً ممن أحببتهم مضوا وبقيت وحيداً. بقينا هناك حتى غروب الشمس، نسيَنا الحارس أو ربما اعتقد أننا غادرنا فأقفل علينا الباب وراح في سبيله. قفزنا فوق السور كالهاربين من المصير المحتوم ومشينا إلى شارع أرمينيا القريب. بدا مبنى الفندق ساكناً لا أثر للنزلاء فيه، حتى المصابيح لم تكن جميعها مضاءة. أطلقت المرأة ضحكة عالية لما دخلت إلى البهو برفقة قريبي الأسود. وبجملة واحدة، أخرجَت كل غيظها: ”صاحبك“، تقصد النزيل الدائم الذي كنا

عائدين من زيارة مدفنه، ”كان يحبّ الشباب، يأتي بهم إلى غرفته، وأحبّك أنت؛ العدوى انتقلت إليك على ما يبدو، ما إن توفّي“.

قلت لها إنه ابن خالتي فسخرت مني ليقينها أنني أكذب.

- هناك من يحب معاشرة السود، من أين أخرجته؟

شعرت بأن صاحبة النزل تقترب من الهستيريا، أو هي وسط سنّ اليأس، فلم أطل الحديث معها. خرجنا من الفندق. الحقيبة أكبر حجماً وأثقل وزناً مما توقّعت، أقرب إلى حقيبة سفر متوسطة الحجم، كستنائية ومصنوعة من جلد الماعز. التقينا بصاحب الفندق عند الباب الخارجي، لم يرمِ علينا السلام بل وقف مستنفراً، واكبنا حتى تأكد أننا نغادر من دون رجعة.

فتحتُ الحقيبة في اليوم التالي. فيها بندقية قنص مفككة جديدة، بشحمها، ومعها كتيّب الاستعمال بالروسية والإنكليزية، وكاتم للصوت، ومنظار بعيد المدى، وعدد كبير من الطلقات ومِزيتة، ودفتر يوميات سميك صفحاته بيضاء من النوع الذي توزّعه المصارف على كبار زبائنها، وقلم حبر سائل ومحبرة، وعلبة سيجار كوبي، وثلاث زجاجات نبيذ فرنسي من البوردو الفاخر ورواية **الموت في البندقية**. شربت النبيذ بنهم، وأنهيت علبة السيجار وأنا أتسكّع وحدي أو مع قريبي في شوارع بيروت، كتبت اسمي على دفتر المذكرات، بدأت تركيب البندقية التي كنت أعود وأخفيها تحت سريري ما إن تقترب عودة ابن خالتي من دوامه الثانية ظهراً. يحضر ومعه أكل جاهز للغداء على أن نكمل قوتنا في الخروج مساء إلى المقاهي. بوهيميون بامتياز.

عاد يوماً من دوامه وقال: ”بلغت اليوم الثامنة عشرة“.

جلس قبالتي ينتظرني أن أتكلم.

بدأت له القصة من البلدة التي ولدتُ فيها، من الرجل الذي ترك عائلته وسافر مع فتاة كانت تعاني من الضجر ونجحت في إغرائه.

- أعتقد أنه الرجل ذو الشاربين الذي تحتفظ أمك بصورته. له ابنة من زوجته الأولى الصعبة المراس، شقيقتك أو نصف شقيقتك.

- كيف تكون شقيقتي؟

- صحيح، والدها ليس والدك ووالدتها كذلك.

رفع صوته قليلاً: ''والدي؟''

- لا أعرف من هو والدك، أعرف أن زوجها هو الأبيض بالشاربين، وزوجته الأولى لا تزال على قيد الحياة في مسقط رأسنا تلعن عائلتنا كل يوم ولا تجرؤ أمك على الظهور في البلدة كي لا تطاردها بالشتائم. أمك حملت بك فإذا بك أسود البشرة، لا أبيضَ ولا خلاسياً. أجدك أجمل من الشبان البيض هنا، أنوف كبيرة وشعر يتساقط باكراً، خليط من شعوب ساميّة قديمة، فينيقيين وأتراكاً وأكراداً ومتوسّطيين من سكان المرافئ وسريانا مربوعي القامة، وطبعاً عرباً سمراً عاربة، ويقال صليبيين وشركساً عيونهم ملوّنة. شيء من بقايا العديد من الشعوب والأعراق والمحصّلة ليست مثالية.

تعقّدت الخريطة فأطرقنا صامتين. وبعد حين، قال: ''سأعود قريباً إلى ياموسوكرو، أعطاني الرجل الأسود الطويل القامة تعويذة أفريقية، قطعة من خشب الأبنوس حفر عليها اسمه وعنوانه فأخفيتها عن أمي. سأبحث عنه. بلادي هناك، أحلم أنني أركب معه فوق ظهر الفيل، أو أمشي حافياً أقود الزرافة. لن أعود إلى بيروت فهي لا تريدني''.

ذهب إلى السفارة، أكملت تركيب البندقية وانتظرت. قررت التصرّف في ضوء النهار، لأن عتم الليل قد يفضح شهب النار ويمكن تحديد مكان إطلاق الرصاص. بقيت لأيام أخرج البندقية وأركزها في النافذة خلف الشرفة كي لا تمكن رؤيتها من أي مكان سوى من الطريق السريع البعيد. أخبّئ فوّهتها وسط نبتة خضراء كثيفة مزروعة في برميل. تمويه كامل. أصوّب على نوافذ البنايات المقابلة وعلى السيارات العابرة. أرى بوضوح رؤوس السائقين، والركّاب، وسكّان البنايات المجاورة الجالسين في متناول سلاحي يشربون القهوة على شرفاتهم. زوجَان يمضيان القسم الأكبر من النهار على الشرفة، يأكلان، يستقبلان الزوّار، يلعبان الورق ويتسامران ليلاً. سأرمي طلقة واحدة مرة الثلاثاء ومرة الجمعة. يحدث غالباً أن يتوقف السير بسبب الزحمة فيكون التصويب أسهل، لكنني أفضل الرمي على أهداف متحركة إذا أصيبت تكمل سيرها لمسافة ما فتبتعد عن مكان إصابتها ما يُصعّب تحديد نقطة إطلاق النار عليها.

في هذه الأثناء، وصلتني الأخبار عن والدي. بلغ سنّ التقاعد وبقي في عمله لكنه صار يتحرّش بالنساء صراحة، يجرّب لهن الأحذية ويلامس أقدامهن وهو يطلق كلاماً فيه غمز ولمز، فصرفه صاحب المتجر بعد الشكوى الثانية بحقّه. صحته جيدة ومتعطل عن العمل، لا صديق له ولا مواعيد.

خالتي تضجر، تُشاهَد وهي تتسكّع في الحيّ بجوار البيت، تنسى أحياناً تحضير الغداء فيتبادل والدي معها العتاب والصراخ. تتأخر في العودة إلى البيت فيخرج ليبحث عنها، وقد وجدها مرة تروي قصة حياتها لصاحب الدكّان فأمسكها من يدها وسحبها صعوداً إلى الشقّة.

وعن زوجتي السابقة أنها تخلّت عن ردّتها الدينية لتعود إلى دراسة الفلسفة العلمانية. سافرت إلى برلين لتكمل أطروحتها حول شوبنهاور من دون إنذار وتزوجت هناك برجل ألماني مطلّق وله ولدان، ترتاد معه الحانات وتشرب البيرة بعد أن حررت شعرها وكتفيها واتخذت لنفسها اسم عائلة زوجها الجديد. أبدى كثيرون من الدارسين الألمان إعجابهم بتلك العربية المتمكنة من فلسفتهم وقد ثابرت على تعلّم لغة غوته. تنكّر لها أهلها وحرموها أي ميراث.

خرج الكردي من السجن، وجده القاضي بريئاً من أي تهمة سوى الدخول خلسة إلى البلاد، وأنّب القاضي المدعي العام بالقول: "لماذا سجنتم هذا الرجل؟ جاء يسلمكم المتفجرات عن نيّة حسنة. سأطلق سراحه". وضرب بمطرقته الخشبية معلناً إقفال القضية. التقيته مصادفة، كان يتأمل الأبنية ذات الأدوار العالية وواجهات المحلات التجارية تعرض الثياب الفاخرة، فعانقني طويلاً وصحبته للمبيت معنا بعد أن أخبرني أنه مشرّد لا يعرف أين سيمضي ليلته. أمضيت أياماً جميلة، الزنجي يتكلم الفرنسية ولغة الديولا المحلية في شاطئ العاج والكردي يحسن العربية ربما أفضل من لغته الأم، وأنا أتقن اللغات الثلاث: العربية والفرنسية والإنكليزية. برج بابل صغير. أنتظر خلوّ الشقة لي قبل الظهر، فواحد يذهب إلى عمله والآخر يهيم على وجهه من دون خطة، كي أُخرج البندقية وألامسها وأطلق في الهواء طلقة تجريبية.

ننزل بعد الظهر إلى وسط العاصمة أو شارع الحمراء، نشرب البيرة ونأكل السندويشات الأرمنية الحارة، ندخل إلى السينما ونخرج منها عندما نشعر أن الفيلم مضجر. نتسكّع حتى ساعة متأخرة من الليل، يروي لنا الكردي كيف كانت لغتهم الأم محظورة في المدرسة ويتكلمون بها في البيت فقط ويضطرون كل صباح إلى

إنشاد التمجيد للرئيس وابنه الشاب من بعده. كانوا شديدي الفقر، يزرعون القمح، يأكلون الخبز الحافي أحياناً، وينام أفراد العائلة الستة في غرفة واحدة وحيدة، نصفهم على السطح في الفصل الحار. في يوم قيل فيه أن أحدهم وجد ليرة سورية مرمية أرضاً، صار أولاد البلدة يمشون ورؤوسهم منحنية لعلّ الاكتشاف يتكرر. خلافاً لأشقائه وأترابه كان يحب المدرسة وينحاز إلى الإدارة في وجه المشاغبين بعدما هددت الإدارة بإغلاق المدرسة إذا لم يلتزم الأكراد الصغار فروضهم والانضباط. وصل إلى المرحلة الثانوية بسهولة، وبدأ قراءة الكتب الأدبية ودواوين الشعر فأصيب برغبة حادة في الفرار لم يخبر أحداً بها. كان يشعر أنه باتت لديه المؤهلات لمجابهة المدينة، وقد شجّعه على الرحيل مدرّس ينتمي إلى الحزب الشيوعي المحظور: "ما لك ولهؤلاء البائسين! اذهب، طر بجناحيك".

ترك فقط لأمه رسالة صغيرة يطلب منها فيها ألا تحزن على فراقه لأنه يفتح لنفسه طريقاً جديدة في هذا العالم الموحش.

"الأكراد ملعونون"، يقول في ختام كل فصل من فصول هذا البؤس.

رميت الرصاصة الأولى على سيارة "مرسيدس" خضراء قديمة الطراز مخصصة لنقل الركّاب. استهدفت الجهة الأمامية. كان يمكن أن أصيب السائق في رأسه لكني حطّمت الزجاج الخلفي فقط. الهدف متحرك والرامي مبتدئ. أوقف السائق وكان متقدّماً في السنّ سيارته إلى جانب الطريق ونزل يعاين ما حدث. نظر في جميع الاتجاهات. أطال الوقوف أمام النافذة الزجاجية المحطمة، اعتقد أن حجراً طار من تحت إطار إحدى السيارات المسرعة بجانبه وضرب بزجاج سيارته. أشعل سيجارة وهو يوزّع نظراته من جديد، لم يرَ أحداً سوى السيارات

المسرعة والبنايات الصامتة. أدار محرك السيارة الذي فرقع صعوداً واختفت ''المرسيدس'' عند أول كوع. بقي حطام الزجاج يلمع تحت الشمس الساطعة.

عاد ابن خالتي من السفارة فرحاً، رأيت أسنانه البيضاء الناصعة للمرة الأولى. أخبرني: ''وجدتُ أبي، حددت منطقة وجوده تقريباً، ساعدني السفير في العثور عليه، تبيّن أنه من أنصار لوران غباغبو الذي هُزم وكان أحد قادته المعروفين. لم يجد السفير صعوبة في التعرّف إليه، لأن اسمه تردد في الإعلام والحرب الأهلية، وفي تهريب الألماس إلى البلدان المجاورة. يبقى تحديد مكان إقامته بالضبط، لأنه على نزاع دائم مع الخصوم من أتباع الحسن وتارا. الآن عرفت لماذا كان يأتي إلى المدرسة متسللاً، لا يريد أن يتعرّف إليه أحد، أسافر قريباً مهما كان الثمن وأحاول إيجاده''.

حذّرته: ''لكنه لن يعرفك وأمك لا تقرّ بوجوده''.

- سيعرفني، للأب غريزة أيضاً. على كل حال، اشتريت بطاقة السفر ولن أتراجع.

طاشت الطلقتان التاليتان في الفراغ بعيداً عن هدفيهما وكنت قد صوّبت الثلاثاء على سيارة من طراز ''أودي''، سوداء، حديثة العهد من النوع الذي يتفاخر باقتنائه الأغنياء الجدد، وأرسلت طلقة الجمعة على شاحنة تابعة لشركة ''بيبسي كولا''، ربما حطمت زجاجة مشروب أو زجاجتين لكن لم ينتبه أحد إلى ما حدث. حافظت على مواعيدي ولم أتحمّس لإصابة أهدافي. في المحاولة الرابعة، ثقبت الإطار الأمامي لسيارة دفع رباعي فخرجت عن مسارها، ترنّحت يميناً ويساراً وكادت تصطدم بحرف الطريق وتنقلب إلى المنحدر، لكن السائق نجح آخر لحظة في تثبيتها وإيقافها. ترجّل منها والخوف بادٍ على وجهه ثم راح يتحدث في هاتفه

المحمول. انتظر وصول ورشة تغيّر له الإطار لأنه كان من الأناقة بحيث تصعب رؤيته يؤدي المهمة التي لن يخرج منها نظيفاً.

سافر ابن خالتي، عرفت تفاصيل مغامرته من أمه التي طاردتني كأنني المسؤول عما حدث له. أخبرتني أنه وصل إلى العاصمة الأفريقية، ذهب إلى العنوان المحفور على قطعة خشب الأبنوس فلم يجد ضالته، بل تلقّى نظرات عدائية من المقيمين في المنزل. لم يرتدع وراح يسأل كل من يلتقيه عن الرجل الذي اعتقد أنه والده. لفت انتباه العاملين في الفندق حيث أقام وذات يوم كان خارجاً فيه إلى المدينة اقترب منه ثلاثة رجال واقتادوه تحت تهديد السلاح إلى سيارة زجاجها داكن مركونة في الخارج وفرّوا به. تعتقد أنه أخبرهم قصته كما يخبرها للجميع فأوصلوا رسالة إلى من اعتبره والده قائلين إن لديهم شيئاً عزيزاً على قلبه. يبدو أن الرجل راجع ما لديه من أشياء عزيزة فلم يعثر على ما هو ناقص بينها، ولم يخطر في باله لحظة أن المقصود هو ابن المرأة اللبنانية التي أقام معها علاقة عابرة وبلغه أنها سافرت نهائياً إلى لبنان، هي وابنها. لم يجب. حتى لما عاودوا الكرّة وقالوا له إنهم لن يسلّموه ابنه إلا مقابل مبلغ كبير لم تصدر عنه أي إشارة.

وما زال مصيره حتى الآن مجهولاً.

خالتي ستذهب للبحث عنه. اتصلت بي كي تبلغني ذلك وتوصيني بأن أعتني بوالدي الذي بات وحيداً فأخرجت جواباً غامضاً ووعداً غير مؤكّد.

بقي لي صديقي من سوريا لكنه سرعان ما اختفى. قال إن عناصر من "حزب العمال الكردستاني" بحثوا عنه في بيروت وطلبوا منه التطوّع في صفوفهم مقابل مبلغ زهيد شهرياً، على أن يعود إلى شمال سوريا ويقاتل على الحدود مع تركيا.

ستة أشهر من التمرين الشاق على السلاح، مساواة بين الرجال والنساء ونظام الاشتراكية على جميع الممتلكات. رفض، وقال لهم إن لديه خيارات أخرى في الحياة: ”حزبكم هذا سيخسر المعركة، لأن من يتحالفون اليوم معه سينقلبون عليه غداً“.

طلب مني المساعدة لكنه رفض أن يخبرني بمشاريعه لعلمه أنني لن أرضى بما ينوي. قلت له أن يفعل ما يشاء وأعطيته المبلغ الذي طلبه مني مضاعفاً. وعد بأنه سيعوّضني عنه ذات يوم فقلت له أن ينساه لأنّني لست بحاجة إلى هذا المال. ودّعني وأعطاني رقم هاتف لأحد الأشخاص الذي يمكنه أن يفيدني عنه إذا انقطعت أخباره. وبالفعل، انقطعت أخباره، اتصلت برقم الهاتف فردّ عليّ شاب كردي قال إنه كان ينتظر مكالمتي واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي في أحد المقاهي. بينهما شبه من دون قربى. كان حزيناً، أخبره صديقه عنّي أنني رجل كريم ونادر ولن ينساني أبداً. ذكراه أدمعت عينيه، فتوقّف عن الكلام. مسح عينيه بكمّه، وقبل أن يكمل القصة أيقنت أن صديقي الكردي مات، هو أيضاً مات: ”طلب منك المال ليعطيه لصاحب مركب تكفّل توصيلَ الراغبين في الهجرة إلى جزيرة صقلية، وإذا وطئوا اليابسة، اهتمت بهم الحكومة الإيطالية وشجعتهم على الانتقال إلى ألمانيا أو إنكلترا حيث فرص العمل متوفّرة أكثر من سائر البلدان. ما إن أبحر المركب، حتى اختفى صاحبه المتخوّف دائماً من غرق زبائنه ومن ملاحقته أمام القضاء“.

لم يكن صديقنا يعرف السباحة، لا بحرَ في بلاده، بلاد الأكراد كلها لا تطلّ على بحر، عالقة بين دول لا تعرف الشفقة. حاول مواطنه إقناعه بالتراجع لكن كان في قلبه شوق إلى هذه الغربة، يرغب في اكتشاف البعيد. في منتصف الطريق، تاه

المركب وضربه الموج فانقلب، حاولت زوارق الإنقاذ مدّ يد العون إلى المهاجرين البائسين، بدءاً بالصغار والنساء. غرق عشرة رجال بينهم صاحبنا، وهو الآن في قعر البحر لم يسعَ أحد إلى انتشال جثته، ذهب فريسة السمك. تودّعنا من دون أن نترك وسيلة للاتصال بيننا، لا هاتف ولا عنوان، لم أعد أريد أصدقاء في حياتي.

استيقظت باكراً وركّزت البندقية في موقعها المعتاد. اخترت خراطيش حارقة لها دائرة حمراء في كعبها يمكن أن تتسبب في اشتعال النار حيث ترتطم. الموظفون يقودون السيارات إلى أشغالهم، سائقو الأجرة يصطادون الركّاب، يزداد عدد النساء الجالسات خلف المقود، أحد السائقين ثقب عادم سيارته الأميركية الصنع فكانت تزأر وتملأ الدنيا دخاناً كلما داس على دوّاسة السرعة. كان يتجاوز رتل السيارات الطويل بحيث اختفى من مرماي قبل أن أصوّب نحوه. الآلية التي انتظرتها وصلت. صهريج المحروقات ينزل بطيئاً سهل المنال، يشغّل مكابحه طوال الطريق. إذا كان مليئاً بالمازوت، لن يحدث الشيء الكثير، أما بحمولة البنزين، فالأرجح أنه سيحترق أو ينفجر وتقع الكارثة. أطلقت رصاصة على الخزّان الأصفر وأتبعتها بأخرى على الدولاب الكبير خلافاً للقواعد التي اتّبعتها. ما حدث عند ذلك فاق توقعاتي. اندلع فوراً لسان نار من خزان البنزين وأدى الارتباك بالسائق إلى حرف الشاحنة نحو وسط الطريق، قفز من مقعده خلف المقود ورأيته يعدو هارباً من انفجار محتمل لصهريجه. كان يرتدي ثوباً مكتوباً عليه اسم شركة النفط التي يعمل فيها.

فاجأ هذا العائق المحترق وسط السكّة السائقين، فلم ينجح سالكو طريق النزول في فرملة سياراتهم وحدثت عمليات ارتطام متتالية لأكثر من عشر سيارات وسط

قرقعة لا مثيل لها. في أقل من دقيقة، تحوّل الطريق السريع الصاعد إلى سهل البقاع إلى ساحة حطام تتسع فيه النار. يشتعل الصهريج بالكامل، اقتربت صفارات سيارات الإسعاف وبدأت نقل المصابين على الحمّالات. سُمع في هذه الأثناء صوت ارتطام كبير. شاحنة محملة خشباً، مسرعة، انضمت إلى الحطام فتطايرت ألواح الخشب في المكان. حوّلت الشرطة خطّ السير، وجاء في الأخبار بعد ساعات: "مجزرة سيارات وحالات خطيرة على طريق البقاع السريع".

توقفت عن متابعة أخبار الحادث، فككت البندقية بعناية وأدخلتها في الحقيبة، حزمت ثيابي وتركت الشقة اللعينة بعدما سلّمت المفتاح لصاحبها الشاحب اللون. لن أسكن في المدينة ولا في ضواحيها المأهولة؛ أنا أمير الظلمات، الأرمل الذي لا عزاء له، سأبتعد شرقاً.

الهرّ والحمام

لم أكن قد بلغت الأربعين من عمري، التاسعة والثلاثين وبضعة أشهر، وكان بعض البياض قد دبّ في مفرقي، شيب مبكر ورثته عن والدي، يوم وقفت أمام المرآة في إحدى غرف الفنادق ورحت أكلّم نفسي بصوت مسموع، أسديها النصح: "هذا يكفي، دارت الدنيا دورتها معك وما سيحدث لك بعد الآن لن يكون سوى تكرار لما سبق، عزفت موسيقاك فعليك الانسحاب بهدوء".

لما ابتلع البحر صديقي الكردي الشاب الذي اعتقد أن اجتياز المتوسّط والوصول إلى إحدى جزر اليونان أو شواطئ إيطاليا هو حلم حياته، دوّنت في مفكرتي ما عليّ تنفيذه من مهمات كي أحصل على عزلتي المشتهاة. عدّلت برنامجي، فلا ثأر ولا من يثأرون، فقط النجاة من هذا الخراب.

بدأت تصفية الحساب المصرفي المشترك مع عمتي واحتفظت بالمال معي، وضعته تحت المخدّة، أوراقاً نقدية بالدولار الأميركي وفق رغبتها القديمة. كانت تلك آخر نصائحها المفيدة إذ تدهور سعر الليرة كما توقعت هي قبل عشرات السنين فأبعدت دولاراتها الوفيرة عني الحاجة إلى العمل. نادوا عليّ كي أقابل مدير المصرف الذي استغرب قراري هذا مدّعياً أني أحرم نفسي أرباحاً راح يستخرج قيمتها من الآلة الحاسبة التي هي دائماً في متناول يده. توقف عن إقناعي عندما لم يرتسم على وجهي أي ردّ فعل، انتبه أنه يتكلّم وحده وأنا أنظر إلى حركة الشارع من النافذة خلفه.

قصدتُ السمّان في القرية التي اخترتها لإقامتي، يبيع كل الأصناف، من الكرز، والمشمش المحلّي، والمعلّبات، والخردوات، ولبن الماعز، كما يذبح بيده رأس غنمٍ السبت فيتحوّل إلى لحّام في نهاية الأسبوع وما زال لديه دفتر لديون الزبائن المقصّرين يسددونها مطلع كل شهر. عرّفته عن نفسي وعن سكني الجديد بينهم، إنه عجوز لطيف، شارباه أبيضان، سارع إلى إخباري أن ولدَيه مسافران إلى أوروبا حيث يعملان. راجع الورقة التي ضمّنتها لائحة حاجياتي، حبوب وخضار وأجبان ومواد تنظيف وغيرها، وتأكّد من توفّرها على رفوفه. سيرسل ولداً يدقّ بابي بيده مرتين كعلامة، ويضع أكياس المؤونة عند العتبة وينصرف. دفعت له مسبقاً فاعترض لكنني أصررت انسجاماً مع مخططي. دفعت له بالدولار فظهرت على وجهه علامات الرضى وزاد اهتمامه بي.

رميت هاتفي المحمول من نافذة بيتي المطلّ على وادٍ عميق فلم أسمعه يتحطم، في كل حال، كانت تمرّ أيام بأكملها لم أسمعه يرنّ منذ اقتنيته، لا يتّصل بي أحد، لم أعطِ رقمي إلا لقلّة قليلة ولم يكن لدي في قائمة الأصدقاء أكثر من عشرة. والحقيقة أن محدّثي شبه الوحيد كان صديق الفندق الذي يرقد الآن في مقبرة الإنجيليين. تركت جهاز الراديو في الشقة الأخيرة التي سكنتها مع صديقيّ، ابن خالتي الأفريقي والآخر الكردي الشريد. كانا يتابعان الأخبار، كلّ على هاتفه الجوّال فتحوّل جهاز الراديو إلى قطعة أثاث للزينة لا فائدة منها.

لم أقتنِ جهاز تلفزيون ولم أخبر أحداً عن مكان إقامتي الجديد، لم يكن لدي من أخبره سوى والدي وخالتي إذا عادت مرة ثانية من ساحل العاج بعد لحاقها بابنها. حتى الآن، لم تعد، وأعتقد أن أخبار ابنها انقطعت هناك؛ خطف الرهائن وطلب الفدية تجارة رائجة وخطيرة في شاطئ العاج. وفي المرة الأخيرة التي التقيت فيها

والدي في أحد الشوارع القريبة من بيته، قبّلني على جبهتي في لفتة مراضاة منه. ادّعى أنه كان يبحث عني ليطمئن إلى أحوالي ثم، كالعادة لم يعد بيننا ما نقوله فوقفنا صامتين ننظر إلى العابرين إلى أن أخبرني أنه قرر اللحاق بخالتي إلى أفريقيا حيث استأجرت بيتاً لهما وهو يعدّ لسفره وسألني بالمناسبة إن كنت أرغب في السكن في الشقّة لأنه سيخليها. كان الإخلاء دليلاً على أن رحلته إلى ياموسوكرو ستطول.

بعد مغادرتي المفاجئة بيتي الأخير إثر الخراب الذي أحدثته بواسطة بندقية القنص، ونزوحي إلى مأوى آخر، لم أحاول أن أعرف نتائج فعلتي لأنّني انقطعت عن سماع الأخبار وشراء الصحف وتوقفت عن ارتياد المقاهي. تهت قليلاً ثم أقمت في فندق صغير اسمه "نزل الأدباء". لفتني اسمه الذي كان يخفي رثاثة في تجهيزاته، وقلة ذوق في اختيار ألوان الستائر، وصعوبة في ابتلاع الإفطار الصباحي. أمضيت فيه أسبوعين أتذكر خلالهما نزل "بيريت – سور – مير"، وصاحبته، وأقارنها بالشاب صاحب النظارات السميكة المولج بالاستقبال، الذي ينسى وجوه الزبائن فيسألهم كل صباح عن أسمائهم من جديد. والنزلاء غالبيتهم من صغار التجّار أو العمّال السوريين وقد سمّي الفندق "نزل الأدباء" من باب السخرية.

أخرج باكراً، أمضي نهاري في سيارات الأجرة وأعود ليلاً أبحث عن مسكن منعزل أستأجره فقادني سعيي خارج المدينة صعوداً إلى القرية الجبلية حيث عثرت على مبتغاي: غرفة واسعة اقتُطع منها مطبخ وحمّام، واجهتها الزجاجية تطلّ من علوّ سبعمئة متر على بيروت التي يلفّها الضباب في كل ساعات النهار بسبب الاحتراق الدائم لمكب النفايات في الهواء الطلق على شاطئ البحر وانبعاث

غاز الكربون من عوادم السيارات، سحابة رمادية تمتزج بألوان البحر في تدرّج يصل بعيداً إلى الأفق اللازوردي. توسّع المالك أمامي بتعداد مزايا البيت ونحن نجول فيه، لم أتجاوب معه رغم فرحتي الصامتة بالوصول إلى غايتي، فأنهى مرافعته. دفعت بدل الإيجار عن سنة كاملة، واخترت المقعد الوثير الذي سأجلس فيه كل يوم: كنبة عريضة من الجلد، قريبة إلى ما كنت أحلم به لبيت الزواج وحالت دونه زوجتي. قال المالك إن أصحابها تركوها كما ترك لنا المستأجرون الذين سبقونا آلة البيانو "ياماها" في شارع المكحول.

أجلس مرتدياً عباءة ثمينة من الساتان الأسود اشتريتها فيما كنت أخطط لأدق تفاصيل خلوتي هذه. أنهض في الصباح، تدرّبت على الغسيل والكيّ، أحلق ذقني بدقّة وانتباه، أستحمّ وأسرّح شعري قبل أن أرتدي ثيابي كأنني خارج إلى موعد في أحد المقاهي، أنتعل حذائي طوال النهار وألبس سترتي، حتى أنني أعقد ربطة عنق في بعض الأيام. وجدت "بابيون" بين أمتعتي لم أتردد في تزيين قميصي بها يوم الأحد عندما كنت لا أزال أدرك تسلسل أيام الأسبوع، وأقف أمام المرآة كي أرضى على هندامي وعلى قراري ثم أرمي عليّ العباءة وأجلس. أقرأ على هذا المقعد، آكل وأنام في الليل وأستريح بعد الظهر، فتأتيني الأحلام الصغيرة في القيلولة وليس في النوم الطويل، أجلس وأسأل نفسي إن كنت موجوداً بالفعل: "من أنا؟"، كما سأل المراهق الأسود يوماً.

هل أحمل وزر ولادتي أم أنني مجرد اختراع لكتبي وقراءاتي؟ هل أنا رقيق أم بليد؟ ينفطر قلبي من مشهد حميميّ لا يلفت انتباه أحد، أم متحجر لا يتراجع أمام الأذيّة؟ من أين تأتي واجهة القسوة هذه، وأنا، كما أشعر في نفسي، ضعيف محبّ

وأسير عاطفة الآخرين تجاهي؟ يسكن فيّ معاً شيطان مثابر وأخ حنون يمكن الركون إليه.

وعلى سيرة الكتب، خفت في وحدتي المستجدة من الخواء، من الطريق إلى الجنون، ومن مواجهة أكون فيها أعزلاً من دون كلمات. زرت المكتبة التي اعتدت التموّن منها للمرة الأخيرة قبل أن أعتصم في البيت، وأمضيت نصف نهار بين الرفوف كي أعيد تكوين مكتبتي المثالية، عشرين كتاباً لا أكثر تحميني وترافقني، أطمر رأسي فيها كل ما صعبت عليّ المواجهة. اختفت التطورات من حياتي، ولو حدثت، فإنني فقدت إمكانية تواصلي معها بعد أن قطعت جميع الخيوط مع الخارج. أستيقظ على صوت حفّارة، أو منشار كهربائي في ورشة خلفية لا يمكنني رؤيتها. السماء زرقاء والشمس ساطعة رغم أننا في عزّ فصل الشتاء، وشجرة الحور التي ينجلي عليّ رأسها وهي تتأرجح في هواء خفيف بدأت تفقد آخر أوراقها الذهبية. أقترب من الواجهة الزجاجية، المدينة لا تزال هناك بغمامها. فكرت في اقتناء منظار ثم عدلت، لأنّني المبتعد عن الدنيا كيف لي أن أعود فأقرّبها من ناظريّ؟ أتوقف لأعدّ لنفسي بعض الأكل الصباحي مع ميل إلى جعل وجباتي تتضاءل، فلقد قرأت أن الجسم قادر على الاكتفاء بالقليل. يحلّ السكون في الخارج ولا يخرقه سوى ضجيج طوافة عسكرية تحوم في الجوار ثم تبتعد.

ذات يوم، قرابة الظهر، شعرت بحركة خلف ستارة النافذة المقابلة لغرفتي، رأيت خيالات تتأرجح. وأقول قرابة الظهر، لأنّني تخلّيت من بداية سكناي هنا عن ساعة يد ثمينة ماركة "باتيك فيليب" كانت قد أهدتني إياها زوجتي السابقة ونسيتها حول معصمي. أقول إنني تخلّيت عنها لكنني في الواقع حطّمتها بمطرقة

وجدتها في أحد الجوارير كردّ ثأري على ما ارتكبَته مدرّسة الفلسفة بحقّ مجسّم بلدتي وكتبي. من حيث أجلس متربعاً طوال النهار والليل، كان يظهر عليّ حائط من الحجر الصخري المصقول تخترقه نافذة ويعلوه سقف من القرميد. خشب النافذة أحمر، وستارته شفافة بيضاء، ولا يبقى لي وأنا جالس سوى فتحة وحيدة، مثلث صغير أرى منه كل يوم لون السماء فأتوقّع الصحو أو المطر. ظلّ زجاج النافذة مقفلاً منذ إقامتي هنا ولم يظهر يوماً أحد من خلالها، لا ظلال ولا "شبح"، كأن أصحاب البيت هاجروا إلى بلاد أخرى. والآن شعرت بحركة هناك ولست متأكداً إن كان دخل أحدهم البيت أو أن ما رأيته مجرد انعكاس على زجاج النافذة لحركة خارجية. لم ترق لي فكرة هذه الجيرة القريبة، وخفت من عودة الساكنين إلى بيتهم يعكرون عليّ هدوءاً أنعم به، ولأنهم ملاصقون لغرفتي، يستطيعون بنظرة واحدة اختراق دائرتي الحميمة.

الحركة الوحيدة التي أرصدها يومياً هي لرهط من طيور الحمام، حمام المدن والساحات العامة بألوانه المتعددة، رأس بين الأخضر والأحمر وباقي الريش من تدرجات الرمادي وصولاً إلى الذنب الأسود. مجموعة تتجاوز العشرين من الطيور جعلت من سقف القرميد قبالتي محطة استراحة لها. حاولت عدّها فاكتشفت أنها تزيد أحياناً، وذلك بجهد من يسمّى "الذكر الجلّاب" الذي يستميل طيوراً من جماعات مجنّحة أخرى. يُقلع الحمام دفعة واحدة فيصفق بأجنحته ويبتعد، وأنا أنتظر كي يرجعه التعب إلى مأواه فيعاود الكرة طوال ساعات النهار حتى تميل الشمس إلى المغيب، فتجتمع الحمامات صفّاً واحداً وتحني رؤوسها الصغيرة الهشّة وتنام. رواحها ومجيئها يقسّمان النهار ومبيتها الأخير إشارة إلى بداية الليل. تتحرك معاً بعد إشارة خفية من قائد السرب، ربما، وقد حرت في

التعرف إليها لكن الإقلاع كان يحدث دائماً في لحظة لا أنتظرها إذ لا تسبقها أي حركة أو هديل. حتى ظهر فجأة على طرف السقف هرّ أسود متّسخ في حال مزرية أقرب إلى البريّ منه للأليف، هرّ المزاريب. تقدّم من سرب الحمام المستريح وبرشاقة كبيرة لم يترك فيها فرصة للمجموعة كي تحلّق هاربة، انقضّ بفمه على عنق إحدى الحمامات، الأخيرة إلى اليمين في الصفّ المتراص، وذهب بها فطارت الباقيات دفعة واحدة ناجية بنفسها. نهضت بسرعة من كنبتي، فتحت نافذتي الزجاجية صارخاً بالهرّ محاولاً طرده، لكنه كان قد فاز بضحيته وانسحب إلى وكر لا يطاوله ناظري. شعرت بالإحباط لخسارة إحدى صديقاتي وبقيت مترصداً للهرّ الماكر، لن أدعه يكرر فعلته.

بعد ذلك استدرت على نفسي ورحت أجرّد نفسي من دفاعاتها. صرت أختار كتاباً من العشرين التي اقتنيتها وأنهي مطالعته على مهل في بضعة أيام، ثم أعود إليه مرة ثانية قبل أن أودّعه. يلزمني أسبوع أو عشرة أيام كي أنتهي من الكتاب قبل أن أرميه في المدفأة. أتأمل كيف يحترق **أهالي دبلن** لجايمس جويس، أمزّق أوراق الكتاب ورقة ورقة وأطعمها للنار على مهل، يسلّيني تحوّلها إلى رماد ودخان. كل ما أفعله هو بمكانة تحدٍّ لذاتي، تجريد نفسي من كل دخيل عليها واختبار مقاومتها. هكذا رحت أقرأ وأحرق، **بيدرو بارامو** لخوان رولفو، **رحلة في أقاصي الليل** لفرديناند سيلين وقد دام احتراقه نصف نهار، كتاب **المواقف والمخاطبات** للنفّري. رائحة احتراق الورق والحبر مقيتة، وكان لكل كتاب رائحة اشتعال مختلفة تعود إلى نوع الورق والحبر، كل هذه الشخصيات الزاهية المضحكة المبكية ذابت لكنني ما كنت لأتراجع حتى نفدت ذخيرتي. اشتهيت الكتب، تشبثت بها وها أنا أرميها في النار. الإنسان، كما يقال، بئر عميق معتم.

آخر كتاب تخلّصت منه كان بعنوان ''إشراقات''، سجّل صغير لفوضى المشاعر وكتابة تريد إعادة تكوين العالم من شظاياه، كما اختبرها شاب فرنسي لم يكد يبلغ العشرين من عمره، ثم حاول التخلص من مؤلّفه والانصراف إلى تعاطي المخدرات والاتّجار بالأسلحة بين مرفأ عدن وبعض مدن الحبشة. كأنه عاد فجأة إلى نوع من الرشد التقليدي قال إن ما كتبه هنا مجرّد تخريفات لا تنطوي على أي أهمية. لكن شقيقته التي كانت تؤمن بنبوغه احتفظت بنسخٍ أعيد طبعها ونشرها في العالم أجمع بكل اللغات. لم أرمِ ''إشراقات'' فور انتهائي منه، احتفظت به في جيبي ذخيرة لبضعة أيام. أكرر مقاطع منه بالصوت العالي وأنا أذرع أرض غرفتي طولاً وعرضاً محاولاً الرقص من دون إيقاع قبل أن أرضخ لفكرة تحرري منه فأشعلته في المدفأة ولأسباب لم أفهمها تعود ربما إلى اشتداد الريح في الخارج في هذه اللحظة أو إلى خطأ في تركيب المدخنة، ارتدّ دخان ''الإشراقات'' داخل الغرفة فغمرها وأصابني بالغثيان. كدت أختنق لو لم أسارع إلى فتح النوافذ والوقوف إلى جانب إحداها أتنفّس هواء بارداً من الخارج وألوّح بيديّ لإخراج الدخان. هكذا لن يبقى لي ما أقرؤه، لا شيء من لغة الآخرين. صرت محكوماً بالاستماع لصوتي وحده. صوت لا يتغذى من أقلام كتّاب عباقرة وأصحاب مشاعر متقدة بل من نفسي المهددة بالنضوب.

مع فصل الصقيع الحاد في القرية الجبلية عاد إلي الألم من الكسر الذي أصبت به في رجلي لما أطلق رجال الميليشيا عليّ النار قبل سنوات طويلة عند المعبر الذي كان يفصل بين البيروتَين. عاد على شكل نوبات متواصلة توقظني ليلاً في بعض الأحيان، تتوقف فجأة وتعاودني من دون سبب عندما لا أكون في انتظارها. كأن الألم موجود لكن يغطّي عليه ضجيج العالم وبتّ أشعر به بسبب السكون الذي

يغمر أيامي. ويصل الألم إلى ذروته فأرافقه بالصراخ، لن أطلب مسكّناً، لن أخرج إلى الصيدلية بل سأكافح الوجع وحدي، بإرادتي وصبري. أكاد أتمتع به عندما يتصاعد ويأكل كل المشاعر الأخرى.

الفراشة المحبوسة معي في الغرفة جميلة، زرقاء وموّشحة بالأسود، فتحت لها النوافذ مراراً كي تجد طريقاً للهرب فلم تفعل بل بقيت تتنقل في البيت، تغطّ على ذنب الأبجر، حصان عنترة، أو تحطّ على وجهي في الصورة التي تجمعني مع عمتي والكلب فوكس والجنرال ديغول، التي علّقتها على الجدار مقابل الكنبة التي أمضي فيها سحابة نهاري. تعيدني إلى بلدتي وطفولتي هذه الفراشة، إلى العمر الذي ينطبع فيه كل شيء وربما يتكوّن فيه كل شيء، أيضاً إلى الأمكنة التي حملتها دوماً معي في تخيلاتي الأدبية. غالبية المشاهد التي توقفت عندها في الروايات حدثت على ضفة النهر أو في الحيّ الملاصق للكنيسة أو جوار البيوت التي سكناها. كما أتوقف من جديد عند نظرات عمّتي وأعجز عن تذكّر مشاعري لما رتّبنا المصوّر على جري عادته قبل أن يضيء الفلاش في وجوهنا. أنسى الفراشة، تختفي لأيام بين أغراض البيت وتظهر فجأة، هي نفسها تتسكّع بقربي وتقترب من المصباح في سعيها الدائم إلى الالتقاء بالضوء.

إضافة إلى الصورة احتفظت بالبندقية، تشعرني بالمناعة والتحكّم، خطّ الدفاع الأخير، لكنني سرعان ما بادرت إلى رمي الرصاصات كي لا تخطر في بالي فكرة الانتحار أو اختيار أهداف في الجوار وإطلاق النار من نافذة غرفتي من جديد فصرت أكتفي بتركيبها وتزييتها وتقريب عيني من منظارها، ثم أعيد تفكيكها وتركيبها مرة جديدة حتى ضجرت منها.

في عصر أحد الأيام، أدركت وأنا أرصد حركة طيور الحمام وهي تبيت في سطح القرميد، أنني أقترب من شخصيات العزلة التي خطرت لي ثم تخلّيت عنها. لا شك أنني على مثال هذه الشخصيات التي تجذبني مصائرها أعاني من عاهة لا أعرف كيف أصفها. يحلو لي الاعتقاد أن التمرد يسري في عروقي وأنني عاجز عن إصلاح نفسي. فإذا كان للقدر عينٌ، رغبتي أن أضع عيني في عينه كما كنا، نحن أولاد الحارة، نتحدّى بعضنا صغاراً ومن ترفّ جفناه أولاً يخسر المبارزة.

تكررت الأيام متشابهة حتى غاصت في الضباب، أضعت التواريخ وأيام الأسبوع. جرس الكنيسة القريبة يرشدني فقط إلى أننا في يوم أحد أو يوم عيد عندما يدقّ في غير أوقاته المعتادة. ويوم بدؤوا بث التراتيل من مكبّر الصوت، أدركت أن عيد الميلاد اقترب بينما صلوات الجمعة العظيمة مثل ''الأم الحزينة''، التي كنت أُطرب بها في طفولتي، تنذرني بقدوم عيد الفصح. أسبح في غمامة لا شكل ولا كيان لها، أرتعد عندما يُقرع الباب من غير انتظار قبل أن أتذكر الشاب الذي يوصل المشتريات من الدكان، ولم أره يوماً. راحت دقات قلبي تتسارع عندما قرع الباب مرة بإيقاع مختلف واستمر الضرب عليه طويلاً. كدت أصرخ أنه لا أحد في البيت. القرع الشديد على الباب لا يتوقف، الوقت عصر، تمددت في مقعدي ورميت اللحاف عليّ والضرب مستمر. الدنيا تناديني. سمعت صوتاً يسأل من خلف الباب: ''من في الداخل؟''

- أنا مختار البلدة...

''ماذا تريد؟'' قلتها مرتجفاً.

- الاطمئنان إليك فقط، لأنه لم يرك أحد منذ إقامتك هنا. اعتقدنا أنك دفعت الإيجار ولم تنقل سكناك حتى أخبرنا صاحب الدكان أنه يزودك بالمأكل وبأشياء

أخرى.

- أشكرك، أنا بخير.

- هل أنت متأكد أن الأمور على ما يرام؟ إذا كنت بحاجة إلى أي شيء، لا تتردد في مكالمتي.

وأعطاني رقم هاتف جوّال لم أدوّنه.

سمعته يقول لمن كان برفقته وهم يبتعدون: ''الرجل غير موزون؛ من الأفضل له أن يحبس نفسه في أحد الأديرة''.

الحقيقة أن المزيد من الوحدة صار يعني لي المزيد من المتعة. وكانت تدبّ فيّ، بين حين وآخر ولأوقات قصيرة، موجة حماسة غير مفهومة تدفعني إلى الرقص وسط الغرفة، أدور على نفسي من دون إيقاع، أدندن فرحاً، أفرد ذراعي كالبجعة التي تتأهب للطيران، ولو تلى ذلك نوبة ألم جارح في رجلي المكسورة. في بداية المساء، كنت أقف قرب النافذة فيتمدد ظلّي إلى البعيد في اتجاه المدينة وأنا ألقي عن ظهر قلب قصائد انمحى ذكرها وذكر شعرائها لكنني ما زلت أحفظها بكل دقة من زمن المدرسة مثل ''نشيد الحرب الشركسي'' أو ''احتضار النسر''. وقد بقي لي من الكنوز الصغيرة الرسائل التي كتبتها في فصل صيف غابر إلى امرأة كانت تغويها الكلمات قبل كل شيء. أخرجتها ورحت أقرأها بصوت عالٍ على مهل، أقبّلها وأصنع من الرسائل طيوراً، أفتح النافذة وأرسلها في الهواء فتجنّح وتهوي في الوادي الصغير تحت البيت. أفتتن بالدنيا كما هي، أحتفل بها من دون سبب، من دون أن يحدث لي فيها ما يفرح ثم أنكسر. كالأرجوحة تحملني عالياً وترميني نزولاً فيتجرّح صوتي وأنا أنادي، أصرخ نحو السماء أو أستعيد عادة

المراهقة في بيتنا الذي نالت منه في النهاية قذائف الهاون، أرفع اللحاف فوق رأسي، أشهق أحزاني وأصرخ بأمي كي تهرع إلى نجدتي.

تتالى عليّ الضوء والعتمة، الصحو والمطر، واختلط النوم باليقظة، فقدت الحياة نظامها وبدأت أنسى الكلمات والتسميات وأصرّ على تذكّرها. كذلك عندما أستعيد الماضي، تغيب عنه في ذاكرتي أيضاً تفاصيل كثيرة وتحضر وجوه ومشاهد لم أعرها كبير اهتمام حينذاك. تقطّعت في ذهني الصلات بين بيوتنا المتعددة فيغيب عني سبب انتقالنا إلى بيروت وسكنانا في مختلف أحيائها. لا يمكنني إعادة إحياء المشاعر التي دفعتني إلى ضرب زوجتي، ولا تلك التي كانت تدفعني إلى الإقدام على إلحاق الأذيّة بأصحاب المال علماً أنني لم أعش فقيراً. رغبتي الملحّة في النساء اندثرت ولم يبقَ منها سوى صدى رغبات جنسية. أتذكّر النساء اللواتي أحببنني وأنسى أسماءهن، ولم يخرج من هذا الضباب سوى وجوه ولحظات مشعّة مثل قول تلك المرأة الشابة لي عند مغيب الشمس في القرية التي أمضينا فيها صيفاً نادراً: ''نفسي ميتة، يا صديقي، تحييها قبلاتك وكلماتك''.

كنت غائصاً في إحدى هذه اللحظات عندما شعرت بارتجاج يشبه الهزّة الأرضية، موجة صاخبة جاءت في جوف الأرض صعوداً من المدينة إلى الجبل حيث أقيم، فاهتزّ كل شيء في البيت وكاد الزجاج حولي يتحطّم. نهضت واقتربت من النوافذ فرأيت ما يشبه ''الفطر'' الهائل فوق المدينة. كان الانفجار كبيراً، عموداً يرتقي نحو السماء، ألوانه متدرّجة، سميكة، من الأبيض والأسود إلى البنيّ والأصفر البرتقالي، تجمّع للسموم بدت معه المدينة كأنها تلفظ كل ما في أحشائها إلى الخارج. أطلت النظر في هذه الغيمة الغريبة، وفي النهاية، فتحت النافذة

فدخلت عليّ رائحة تحرق القلب، وسمعت في الخارج صراخاً بقي يتقطع طويلاً، لم أفهم ما يقال لكن اللهفة كانت طاغية على الأصوات.

هبط الموت على المدينة، ولم تأتِ طيور الحمام في ذلك اليوم إلى سقف القرميد، فرّت إلى ملجأ آخر وستعود بعد أيام. وحده روح الشرّ ظهر، الهرّ البريّ الوسخ بمشيته الرشيقة يبحث عن طريدة، وبره الأسود منفوش، تقدّم إلى طرف السقف واختفى للمرة الأولى في الجهة المقابلة لظهوره. بقيت الفراشة تتعثّر بين النافذة والخزانة والمصباح الكهربائي في حركة محمومة حتى وجدت أيضاً مخرجاً تهرب منه فاختفت نهائياً. عدت إلى مجلسي، لن أكسر عزلتي لأعرف ماذا حدث في البعيد في مرفأ المدينة، فهو مصير مكتوب ليس في مقدوري أن أغيّر فيه شيئاً. وضعت رأسي بين يديّ وسرحت لساعات تصوّرت خلالها أن أمي أورثتني خوفها من العمر، طفلاً كبيراً يحاول بإصرار النزول من القطار، يستغيث ولا من يجيب. أتخيّل أمي ولا أراها بينما ما إن أفتح عينيّ وأرفع رأسي من تحت اللحاف، حتى تظهر عمتي أمامي في الصورة التي جمعتنا، أنا وإياها، والذعر غير المفهوم في عينيها باقٍ إلى الأبد. فالمصوّر الجوّال الذي كان يعلن قدومه بإضاءة الفلاش لمرات متتالية وهو واقف في الباب، وفي رمية من غير رامٍ، ثبّت خلاصة حياتي في نظرات عمتي.

الآن، بعدما دار الزمن دورته كاملة، سيقرع الرجال بابي، منهم بالثياب العسكرية ومنهم بالسروال والقميص، والبنادق على أكتافهم. سيأتون عند انبلاج الفجر وسأكون نائماً. سأستفيق، ولن أفتح ولن أسأل صارخاً: من هناك؟

سيمعنون في الضرب بقوة وبأدوات حادة، وفي النهاية، سيقدمون على خلع الباب. يدخلون عليّ، يبحثون في أي مكان، في المطبخ أو الحمّام، قد أكون

اختبأت فيه عنهم، سيتوقفون طويلاً عند البندقية بالمنظار. كانت شكوكهم في موضعها، يتحادثون عن عملية اغتيال، ويزداد ارتيابهم مني وخشيتهم من أن أقدم على أفعال لا تحمد عقباها، سينظرون من النوافذ إلى جوار البيت حيث قد أكون التجأت. يدورون على أنفسهم فلا يجدون شيئاً. المكان مكشوف ولا مجال للاختباء فيه. سيسقط في أيديهم ولن يعرفوا أنني لوّحت بجناحيّ، وفي أول وآخر إقلاع صباحي، حلّقت مع الحمام بعيداً نحو السماء الزرقاء حيث اختفيت، أنا والرفّ، في الأفق البعيد.

حول الكتاب

نبذة

«اسكن في قلب أسد، ولا تسكن في قلب إنسان»، نصيحة سمعها قبل أن ترحل أمه، فالإنسان، كما يقال، بئر عميق معتم.

مع رحيلها، تتحوّل حياته إلى مسار تراجيدي يجد نفسه مستسلماً له، فيما يخطف القدر أصدقاءه واحداً تلو الآخر. فينزوي بأيامه الأخيرة في بيت يطلّ على بيروت.

فجأة تدخل فراشة إلى البيت، تعيده إلى بلدته وطفولته، إلى العمر الذي ينطبع فيه كل شيء، وإلى الأمكنة التي حملها دوماً معه في تخيلاته الأدبية.

أملٌ يلوح هنا: «إذا كان للقدر عينٌ، رغبتي أن أضع عيني في عينه كما كنّا، نحن أولاد الحارة، نتحدّى بعضنا صغاراً، ومن ترفّ جفناه أولاً، يخسر المبارزة».

قيل في الكتاب

* «لغة جميلة ومزاوجة ممتعة بين التاريخ والواقع» عن روايته «ملك الهند»، صحيفة «الأخبار»

* «قاصّ متألق وأحد أبرز روائيّي قرننا الحالي» «رصيف 22»

عن المؤلف

جبّور الدويهي كاتب وروائي لبناني.

صدر له عن دار الساقي: «حيّ الأميركان» (جائزة سعيد عقل 2015)، «شريد المنازل» (جائزة «الأدب العربي» 2013 وفي القائمة القصيرة لل- «جائزة العالمية للرواية العربية» 2012)، «مطر حزيران» (في القائمة القصيرة لل- «جائزة العالمية للرواية العربية» 2008)، «ريا النهر»، «طبع في بيروت». تُرجمت رواياته إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والتركية.